دار روح منشورة
للنشر الإلكتروني

أوتار الحياة

قصص

خالد حميدة

نوع العمل: مجموعة قصصية

اسم العمل: أوتار الحياة

اسم المؤلف: خالد حميدة

الناشر: حروف منثورة للنشر الإليكترونى

الطبعة: الأولى يناير ٢٠١٧

تصميم الغلاف: مروان محمد

تدقيق لغوى: سائد محمود الحموي

تفضلوا بزيارة موقعنا حروف منثورة للنشر الإليكترونى من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://herufmansoura٢٠١١.wix.com/ebook

كما يمكنكم متابعتنا من خلال صفحتنا الرسمية على الفيس بوك من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://facebook.com/herufmansoura

كما يمكنكم مراسلاتنا بأعمالكم و مقترحاتكم على الإيميل التالى:

Herufmansoura٢٠١١@gmail.com

دار حروف منثورة هي دار نشر إلكترونية لخدمات النشر الالكتروني ولا تتحمل أي مسئولية تجاه المحتوى الذي يتحمل مسئوليته الكاتب وحده فقط وله حق استغلاله كيفما يشاء

أوتار الحياة

مجموعة قصصية

خالد حميدة

الفهرس

إهداء : ٧

البداية ٩

نبراسُ حياةٍ ١٦

المدينةُ الخالدةُ ٢٠

روحُ الحياةِ ٢٣

ضفافُ الموتِ ٢٧

بدايةُ النهايةِ ٣١

إلهام ٣٤

مملكةُ الحبِّ ٣٨

البحثُ عن الحريّةِ ٤١

الرجلُ الصغيرُ ٤٧

قناعة ٥٣

فقدتُ نفسي ٥٨

إلى من أحبُّ ٦٢

عندما يغزوكَ الصّمتُ ٧٣

أوتار الحياة..... ٧٧
وبعدين!..... ٨٧
الرُّوحُ الخالدةُ ٩٠
هكذا خُلقنا... ..... ٩٤
لقاءْ ٩٦
حوارٌ مع النّفسِ..... ٩٨
النُّفوسُ الزّجاجيةُ ١٠٤
خريفُ العُمرِ..... ١٠٨
صرخة نجم..... ١١١
هذا أنا..... ١١٤
العودةُ إلى الأمامِ..... ١٢٠
الرَّحيلُ ١٢٦
جُرحٌ بملامحِ إنسانٍ..... ١٣٢
بينَ كُلِّ شروقٍ وغروبٍ..... ١٣٥
نبذةٌ عنِ الكتابِ..... ١٣٨
نبذة عن الكاتب..... ١٣٩

إهداء :

تمرُّ الأيامُ على أعمارِنا كمرورِ الزّبدِ على سطحِ البحرِ....

إلى مَن زرعَ فيَّ الحنانَ والإيمانَ....

برُّ الأمانِ (أمّي الغاليةُ)

إلى مَن غرسَ لديَّ العزمَ والعنفوانَ....

نبراسُ حياتي (أبي الغالي)

إلى مَن علَّمني كيفَ أكونُ مصنعَ الرجولةِ....

رفقاءُ الدربِ الطويلِ (إخوتي وأصدقائي)

إلى كلِّ مَن يُدركُ أنَّهُ أعزُّ عليَّ من روحي

أقدِّمُ كتابي هذا

مع خالصِ حبّي وتقديري

خالد

البداية

منذُ عشرينَ عامٍ ونيّفٍ وُجدتُ في هذهِ الدنيا، ومعَ مرورِ الأيـّامِ والشهورِ بدأتُ بخوضِ أوّلِ امتحانٍ لي فكانَ الوقوفُ على قدميَّ كالكبارِ دونَ الوقوعِ حُلماً يراودُني في المهدِ.

كنتُ أراهُمْ يسيرون ويركضون وأنا أتحسّرُ على نفسي فأصرخُ:

أريدُ أنْ أقفَ:

ساعدوني كي أقفَ....

صدّقوني لا أريدُ السيرَ فأنا أخشى أنْ أتعثّرَ وأقعَ على وجهي.

فلا أحدَ يفهمُ صراخي وتعذّبُني هِزّاتُ أمّي وأنا قابعٌ في حِجرها، هيَ تحسبُ أنّي أريدُ النومَ لكنّي لا أحبُّ النومَ لقد مللْتُ منهُ، أهدأُ قليلاً وأعودُ لتذكُرِ خُطاهم في الشارعِ فأجدُ منهم مَن يسيرُ بعجلٍ، ومنهم مَن ينتصبُ ويشمخُ

فأحسُبُهُ جبلاً مُتحرِّكاً وآخرونَ يسلّمون أيديَهم للرياحِ أثناءَ سيرِهم فأراهُم كأنّهم أشجارٌ تتلاعبُ الريحُ بأفنانِها.

أعودُ للبُكاءِ والصُراخِ حينما أتأكَّدُ من فشلِ قدمايَ في تقليدِ الكبارِ في سيرِهِم وجريهِم، فتعودُ أمّي لهدْهداتِها وطبْطباتِها على صدري لعلّي أنامُ....

.... آهٍ كمْ أحبّكِ يا أمّي .....

....أنا أحبّكِ كثيراً. كثيراً .....

ولكنّي حزينٌ لأنّكِ لا تستطيعينَ أن تفهمي معنى بُكائي وصُراخي، هَدَأتْ حركةُ يدِ أمّي قليلاً،ورويداً. رويداً. بدأتُ أشعرُ بالوهنِ من كثرةِ البكاءِ وشدّةِ الصراخِ اللتانِ لم يحتملْهُما جسدي الصغيرُ والنحيلُ ونمتُ بهدوءٍ.

نمتُ كثيراً لكنّي بعدما استيقظْتُ وجدْتُ نفسي أسيرُ كالكبارْ، لا وبل أفضِّلُ الركضَ والعدوَ على السيرِ، ولاحظْتُ أيضاً وجودَ شخصٍ يحبُّني جداً يعيشُ معنا في البيتِ ولا يشبهُ أمّي لديهِ شعرٌ كثيرٌ على وجههِ، وصوتُهُ يخيفُني، إنّهُ مثلُ تلكَ الجبالِ التي تسيرُ، وكانَ كُلّما عدوتُ يحرِّكُ شفتَيهِ بشكلٍ غريبٍ، وأنا لا أعرفُ كيفَ يفعلُ ذلكَ، وبعدَ مدّةٍ وجيزةٍ بدأَ لِساني يتحرَّكُ بطريقةٍ لم أعهدْها من قبلٍ، وخرجَتْ منّي كُلّيماتٌ لا أحدَ يفهمُها أبداً حتّى أنا.

كنْتُ في كلِّ مرّةٍ أقعُ على وجهي يختلطُ بُكائي بتلكَ الكُلّيماتِ...أقولُ: مووو

و وواااااا... وأصرخُ كثيراً من شِدّةِ الألمِ فتهرَعُ أمّي إليّ وتحمِلُني إلى صدرِها ويغمرُ حنانُها ألمي كُلّما كبرْتُ

أحببْتُكِ أكثرَ يا أمّي، لقد اعتدْتُ على ذلكَ الجبلِ المخيفِ، وبدأتُ أحبّهُ مثلما يحبُّني، ولكنّه لم يكنْ دائماً معنا أنا وأمّي؛ كانَ يأتي في المساءِ ويذهبُ في الصباحِ لا أعرفُ إلى أينَ؟ لكنّي كنْتُ أحبّهُ أكثرَ عندما كانَ يُجلسُني على ركبتَيهِ ويبدأُ بتحريكِ شفتَيه ويطلُبُ منّي أنْ أفعلَ مثلَهُ ولكنّي لا أستطيعُ، وفي إحدى المرّاتِ نجحْتُ بتكرارِ ما يفعلُ فخرجتْ منّي كلمةَ " بابا " حضّني على تكرارِها ثانيةً فكرّرْتُها ثانيةً وثالثةً بفرحٍ كبيرٍ، لأنّي قلتُ كلمةً فهمَها الكبار أمّا هوَ..... فضمّني إلى صدرِهِ وكادَ يخنقُني ثم راحَ يقبّلُني.

قبّلَني كثيراً كثيراً.....

بعدها تتالتِ الكلماتُ التي أقولُها ويفهمُها الكبارُ وتعلّمْتُ أنّ أبي رجلٌ وأمّي امرأةٌ وأنّي ولدٌ، وتعرّفْتُ

أيضاً على الليلِ والنهارِ وصرْتُ أضحَكُ كثيراً وقلَّ بكائي عندما بدأتُ أكبرُ.

اليومَ وبعدما مضى على وجودي في الدنيا ما يزيدُ على عشرينَ سنةً لم أعُدْ أهتمُّ بآمالِ الأطفالِ وأحلامِهِم، كأنّي نسيتُ أنّي كنْتُ واحداً منهم ونسيتُ أيضاً أنّ اللذين علّماني، هُما الآنَ في طورِ الرجوعِ إلى طفولَتِهم المنصرمةِ، لكنْ مع فارقِ العمرِ والجسدِ، وغابَ عنّي أيضاً أنّني سأعلّمُ طفلاً هو من صُلبي، ما تعلَّمْتُه من أبي وأمي في الأيامِ الخوالي، واللذين أقدِّمُ لهما كلّ ما أستطيعُ، وأيضاً أنّ سُنّةَ الإنسانِ ضَعفٌ تتلوهُ قوّةٌ، ويتبَعُهُ وهنٌ مُقيمٌ ينتهي بالموتِ، عهداً منّي أمامَ الله أنْ أعلّمَهُ ما علّمَني إيّاهُ أبي وأمّي، ومِن ورائِهما قرآنٌ تتأكَّدُ صوابيَتُه كلّ لحظةٍ ألفَ ألفَ مرَّةٍ، وسيرةُ رجلٍ

عظيمٍ خالدٍ جمعَ الرحمةَ والشدّةَ والحزمَ والصفحَ في تعامُلِهِ مع الأعرابِ.

كلُّ ذلك ضمنَ الدينِ الراقي، دينُ كلِّ الأوقاتِ والأزمانِ الإسلامُ.....

نبراسُ حياةٍ

في بدايةِ الأمرِ وعندَما شعرتُ بمدى ودّي لهُ، وكيفَ كانَ الصديقُ الصدُوقَ معي في أكثرَ من موقفٍ لم أقلْ لهُ سوى شكراً، فكانَ كعادتهِ بسيطاً في ردّهِ كنْتُ أتوقَّعُ منّهُ أن يرُدَّ عليّ بأسلوبهِ الذي عرفْتهُ مُذّ عرفْتُه حينها قالَ لي: أنا لم أفعلْ أيّ شيءٍ لتشكرَني، وراحَ يتأمّلُ قَسَمَاتِ وجهي، وقد طغتْ عليّ علاماتُ الرضا لأنّي أحسستُ أنّهُ من الواجب أن أقولَ لهُ كلمة شُكرٍ نابعةٍ من سويداءِ القلبِ كأبسطِ شيءٍ أقدّمهُ لهُ.

في لقاءٍ آخرَ أردْتُ أن أقولَ لهُ شكراً مرَّةً أخرى لكنّي خفْتُ أن يضجرَ ويسأمَ من شكري لهُ على شيءٍ لم يكنْ ينتظرُ منّي أيّ شكرٍ عليهِ، لقد كانَ ومازالَ بصداقتهِ لي كغيمةٍ تروي أرضاً قاحلةً ولم ينتظرْ أيَّ ثناءٍ على فعلهِ، إنّهُ كروحٍ مرحةٍ في الأفُقِ تتحدى العواصفَ وتقهرَها بانسيابيَّتِها.

إنّه أُنسي ونبراسُ حياتي لا أدري ما الذي جعلَني أنسى أن أكتبَ عن صداقتي معهُ منذُ عشقتُ خَلْقَ الكلماتِ من بناتِ الأفكارِ؟ لعلّها المسافةُ التي أرادَها القدرُ أن تكونَ بيني وبينهُ مدّةً من الزمنِ.

من حوالي خمسةَ عشرَ دقيقةً تكلّمتُ معهُ بالهاتفِ، وآهٍ كم ارتحتُ بحديثي معهُ... لقد شعرتُ بحبّي لهُ -وكأنّي أحبُّه أوَّل مرّةٍ- ولكنّي لن أدعَ الحروفَ والكلماتِ تبوحُ بأسرارِ هذا الحبّ الذي أنارَ حياتي... بل سوفَ أبقيهِ في علِمِ الغيبِ فهوَ أجدرُ أن يبقى هناك.

في لقائي القادمِ معهُ لن أشكرَهُ ولكنّي سوفَ أقولُ لهُ أنّي أشكرُ اللهَ الذي أرسلَهُ لي منذُ فجرِ عمري ليكونَ سندي في بحرِ الحياةِ ودوّاماته....

فِعلاً أنا أشكرُ اللهَ الذي هو أعلمُ منّي بمدى هذا الشكرِ، ولا أقولُ سوى الحمدُ لله على كلّ شيءٍ والتي غدتْ جملةً تترسَّخُ كقناعةٍ عندي يوماً بعدَ يومٍ.

المدينةُ الخالدةُ

أمَا زلتَ يا حيّي تحتَضنُ ذكرياتي القديمةَ؟

أما زلتَ يا بيتَنا تحتوي آهاتِ النهارِ وصرخاتِ الليلِ؟

أما زلتِ يا حلبُ كما عهدْتُكِ مُذّ غادرتُكِ آخرَ مرّةٍ مليئةً بالحبِّ والحقدِ مفعمةً بالجمودِ والحركةِ؟

تُرى ما الذي تغيّرَ عليّ طوالَ تلكَ القرونِ التي قضيتُها بعيداً عنكِ، وكنتُ أبحثُ فيها عن وطنٍ بديلٍ ولم أنجحْ إلى الآنَ، ضجرْتُ من تعبِ الشوقِ داخلي، أحاولُ استدراجَ النسيانِ إلى ذلك الشيءِ الذي يسمُّونَهُ العقلَ لكنّ محاولتي كمحاولةِ مَن يريدُ أن يُمسكَ الهواءَ بكلتا يدَيه.

تمرُّعليّ الصباحاتُ دونما رأفةٍ بحالي، وبلا أيّ شعورٍ بالخجلِ، وهيَ التي جعلَتني أتوهُ في مكانٍ كانَ يجبُ أن يكونَ وطناً، ها أنا أرسمُ من الكلماتِ بحورَ الشوقِ وأنهارَ الحنينِ لأكونَ المنبعَ وتكونين أنتِ يا حلبُ وِجهةَ أنهاري وقِبلة بِحاري.

عجبتُ كثيراً ممّن يكتبون قِصصَ الاغترابِ والعذابِ على الأوراق، والتي تحفظُ مآسيهم يوماً أو يومين، ثمّ تعودُ الأوراقُ خاليةً من الحياةِ والعذابِ، كانَ الأولى بهم أن يكتبوها على أوراقِ الزمنِ ويلصقوها بحائطِ الأزلِ...

في هذهِ اللحظاتِ وأنا أخطّ هذهِ السطورَ لا أعرفُ إن كانتْ هذهِ نعمةٌ لأعرفَ مدى تعلُّقي بكِ يا مدينتي الخالدةً أمْ نقمةٌ أُقاسي من خلالِها شتّى أنواعِ العذابِ، ما أحوّجَني إلى النشوةِ التي كنتُ أعيشُها معكِ يا حلبُ، وكأنّكِ فتاةٌ تسامى صباكِ في روحِ الذكورةِ لديّ. لا....لا أريدُ أن أكونَ ذلكَ الابنَ العاقَّ الذي تبرّأ منهُ وطنُهُ، وكثيرون مَن هم يشبّهون الوطنَ بالأمّ، لا... لنْ أذرفَ الدماءَ والدموعَ على فراقِكِ فأنا واثقٌ أنّ الرجوعَ مصيري، ولو حتَّى محمولاً على الأكتافِ فلتمضي الأيّامُ إلى حيثُ تشاءُ فدوامُ الحالِ من المُحالِ.

روحُ الحياةِ

في زمانٍ ومكانٍ ما خُلقنا...

خُلقنا وحزنُنُا يكبرُ وينمو في الفراغِ إلى أن اختارَنا وطناً!!!

منذُ البدايةِ وعندما روى قابيلُ الأرضَ بدماءِ أخيه هابيلَ، استقرَّ فينا الأسى وامتنعَ عن الخروجِ إلى يومِنا هذا.

يومُنا هذا ككلّ يومٍ سبقَهُ... نسعى في كلّ السُبُلِ بحثاً عن السعادةِ، لكنّ ما يحدثُ يكونُ على عكسِ المُنى فتتقلّصُ الآمالُ وتتبدّدُ الأحلامُ وتضيعُ كُلّ الأماني ونعودُ من حيثُ بدأْنا.

وأنا مثلُ كُلِّ أولئكَ البشرِ أنشدُ السعادةَ وأبحثُ عنها بينَ ساعاتِ الشهورِ ودقائقِ الأيّامِ دونَ العثورِ على بارقةِ أملٍ تحيي أملي.

أضجّ في مكاني.

أتضرّجُ بأحزاني وأحلامي.

أصرخُ بوجهِ الأوراقِ فيغدو صُراخي سطوراً ما ألبثُ أن أبعثِرَها.

أثورُ على نفسي.

أوبّخُ الأنا وأنثرُ كرامتَها مع الرّيحِ.

فجأةً... وبينَ الليلِ والنهارِ يأتيني صوتٌ دافئٌ يحضّني على الصّمودِ وينهاني عن السقوطِ في الهاويةِ السحيقةِ.

إنّهُ صوتُ جدّتي التي قادَها المرضُ إلى الموتِ، إنّها مثلُ كلّ أولئكَ الأمواتِ الذينَ نعرفُهم ونعرفُ سيرَهم وينبغي أن نتعلّمَ منّها، لكن لا أحدَ يتعلّم إلا من نفسهِ... لكنْ كيفَ يمكنُ أن تناديني وقد غيّبَها الموتُ....

كيفَ ذلك.....

أتفكّرُ.....

أتأمّلُ .....

لقد أدركتُ الآنَ أنّ صوتَ جدَّتي ما كانَ سوى رسالةً بعثَها الأمواتُ للأحياءِ، ويحثّونهم فيها على استمرارِ التقصّي ومتابعةِ

ما وصلُوا إليه لنصلَ نحنُ إلى الأملِ المنشودِ أو على الأقلّ تركُ رسالةٍ للجيلِ القادمِ نحثُّهم فيها على متابعةِ رحلةِ روحِ الحياةِ التي لن تنتهيَ إلا بيومِ قيامةِ الأرضِ....

ضفافُ الموتِ

في جنّةٍ تقبعُ فوقَ البيوتِ، وفي روضةٍ تتكوّمُ فوقَ سماواتِ المنازلِ، وفي جِنّةِ الليلِ استهواني أن أبعثَ إليكَ بكتابي هذا ليصلَكَ مع عبيرِ الرياحينِ وأريجِ الأقاحي بعدَما أقدمْتَ ذاتَ يومٍ على الرّحيلِ...

رحلْتَ دونَ إنذارٍ مسبقٍ ...دونَ هدوءِ العاصفةِ... رحلْتَ بمثلِ ما ظهرْتَ كلمعةِ برقٍ أنارتْ حياتي كابتسامةِ موتٍ مرَّتْ على شفتيَّ، جمعْتَ اللحظاتِ السعيدةَ وأتيتَ بها إليّ لأنتشيَ بكما معاً ؛ رسمتك بخيالي كحُلمٍ ورديٍّ وكنتَ في حلمي مشهداً طبيعياً غير اعتيادي، ظننتُ البحرَ فيهِ ماء السعادةِ لذّةً للشاربين وأشجاره لؤلؤٌ مكنون تثمرُ حبّاً ونوراً، والأطيارُ في سمائهِ اللازورديّة ظننتُها ملائكةً تحملُ أرقّ الأماني وأطيبَ المُنى، كم هو لذيذٌ وممتعٌ ذلكَ الشعورُ الذي أشعرُ بهِ وأنا أحضنُ صِباكَ الرقيقَ العذبَ بكلِّ ما أملكُ وبكلّ

ما لا أملكُ، لقد استعدْتُ بصحبتكَ أيامَ الطفولةِ وعشتها مرَّةً ثانيةً وهذا شيءٌ مستحيلٌ في المنطقِ لكنّهُ حدثَ لي معك...

الآنَ أنتَ رحلْتَ إلى من هو أرحمُ بكَ منّي، وأنا بقيتُ هُنا أكابدُ الحزنَ والبؤسَ والأسى، وتمرُّ عليّ الأيّام كأنّها ما مرّت ذلك أنّي شعرْتُ حينَ رحيلكَ بوقوفِ الزمنِ، ووقوفِ عمري معه، وكانَ لا بدَّ لي في هذه اللحظةِ أن أخُطَّ هذه السّطورَ لأجلكَ ولأجلكَ فقط... أنتَ الذي كنتَ الورد والودّ وما زلتَ الحبَّ الحلم وستبقى الأمل والألم.

لم تكنْ تلك الأيامُ التي انقضتْ ونحنُ متباعدين سوى قطراتِ ندًى تناثرتْ عند مُحيَّا قرصِ السّماءِ المنيرِ المتمثّلُ بغيابِكَ، أذكرُ جيّداً أوّلَ أيامِ حياتِك كانتْ أياماً كفيلةً بأن تنقلَ الحلمَ إلى الواقعِ.... فكنتَ حلماً يكادُ يتحققُ بمباركةِ القدر... لكنْ بعدَ جُرحِ غيابِكَ أضحتْ هذهِ الكلماتُ بوحُ فؤادٍ اختلجَ فيهِ كُلُّ شيءٍ ... كُلُّ شيءٍ ...

كُلُّ شيءٍ عدا الأمانَ والحبّ والسلامَ، هي كلماتٌ عذبةٌ رقيقةٌ نقيّةٌ باحَ بها القلبُ في ومضةِ برقٍ وطرفةِ عينٍ وانجلَتْ من فورِها، وتحطّمَ القلبُ وتكسّرَ حطامُهُ حزناً، وما عادَ للعيشِ أيُّ معنًى بدونكَ، سأبقى أعيشُ على هوامشِ الأيّام أنتظرُ حتّفي علّي ألتقي بكَ في برزخٍ ما، وبالرغمِ من أنَّ صورتِكَ لم ولن تغادرَ وجداني وعقلي إلا أنّ ذلكَ لا يكفيني، فأنا أريدُ أن أستمتعَ بقربِكَ جانبي ووجودي معك وأريدُ أن أطردَ ذلكَ الشعورَ منّي فلم يعدْ بوسعي سوى أن أزفّك إلى إخوانكَ الشُهداء...

تباً لشعورٍ غزاني ذاتَ ليلٍ على حينِ غرّةٍ...

شعورٌ بفقدِ الأشياءِ هكذا وبدون سببٍ وفجأةً وكأنّك على ضفافِ الموتِ....

بدايةُ النـهايـةِ

جَلَسَ وهوَ يتذوَّقُ طعمَ البُنّ المغليّ بالماءِ، الماءُ الذي ما لبثَ أن يُمزِّقَ نفسَهُ من لهيبِ قطعةِ الحديدِ المتوهّجةِ ذاتِ السّنونِ المتطابقةِ. وإذ بستارةٍ تنسدلُ أمامَ ناظرَيه وبها من الخوفِ أعظمِهِ ومن الهلعِ أشدّهِ، فيجذبُهُ نحوَها فُضولُهُ الذي لا يعرفُ إلى أيّ مكانٍ يأخذُ صاحبَهُ. إنّهُ يأخذُهُ إلى المجهولِ حيثُ لا نورٌ ولا ظلامٌ لا حرٌّ ولا بردٌ.

إنّهُ يأخذُهُ إلى الموتِ ذو الأبعادِ الكبيرةِ والدروبِ المختلفةِ.

فجأةً! يأتي رجلٌ مسنٌّ من خلفِ الستارةِ، ويسألُهُ بعضَ الأسئلةِ الروحيّةِ المتعلّقةِ بعهدِهِ القديمِ. لقد أتاهُ الموتُ وهو في حالةٍ من الذّعرِ والدهشةِ لِما وقعَ أمامَ ناظرَيهِ وبدأَ الخوفُ يَسري في جسدهِ حتّى انتهى به إلى الموتِ.

لقد شعرتْ جدرانُ الغرفةِ بالوحدةِ... فذهبَ الذي كان يحتسي القهوةَ والشّاي معها ويعطّرُها برائحةِ سجائرِهِ.

ها قد رحلَ وتركَ كلَّ شيءٍ في السرابِ في مكانٍ لا تزورُهُ إلّا الرّياحُ المهاجرةُ عبرَ الأثيرِ الموحشِ.

غادرَ وخلّفَ وراءَهُ روحاً راكدةً في أعماقِ الوحدةِ القاتلةِ لِكُلِّ ما هوَ جديدٍ. فقد عاشَ حياةً رتيبةً ونظاماً قاتلاً. لقد ماتَ من شدّةِ الظّلامِ الذي أحاطَ بحياتِهِ الممتلئةِ بكلِّ الأخطاءِ الكبيرةِ التي كانَ سببُها الأوّلُ نفسُهُ الأمّارةُ بالسّوءِ.

إلـهام

اليومُ بدأَ كلِّ شيءٍ في حياتي.

اليومُ بدأَ تاريخيّاً فثارتِ الثوراتُ واندلعتِ الحروبُ في كلِّ مكانٍ من جسدي، وغدا كأنَّهُ أرضُ البراكينِ التي تتفجَّرُ في كلِّ لحظةٍ لِتُحرقَ كلَّ ما في طريقِها. تتمادى الأفكارُ والأحاسيسُ في رأسي، فتارةً أشعرُ بالحُبِّ تُجاهَ كُلِّ الناسِ وتارةً أوشكُ على الطيرانِ من فرطِ السعادةِ والسرورِ، وكثيراً من الأحيانِ أشعرُ أنّني أكادُ أن أحلّقَ في بحورِ الحُلُمِ كأنّني وردةٌ أيقظَها ندى الصباحِ بعد ليلةٍ عاصفةٍ كساها الوهنُ والخوفُ.

قبلَ هذا اليومِ كنتُ شيئاً... لا لم أكنْ سوى طيفٍ تتهافتُ عليه الرياحُ لتحملَهُ كيفما شاءَتْ وتأخذُهُ أينما أرادَتْ، وأنا ليسَ عليّ إلّا أن أتقلّبَ مع تلكَ الأنواءِ، فأُصاحبَ الكرى وأصادقَ الداءاتِ لأكسبَ ودَّ الأسى، وفي النهايةِ أقعُ في لُجّةِ التيهِ دونَ أن أشعرَ بتتالي الصباحاتِ والمساءاتِ.

بدأَ هذا اليومُ بحفنةٍ من الخوفِ تسري في ذلكَ الشيءِ الذي يسمّونَهُ النجيعُ أو الدمُّ فلم أكترثْ لها وتابعْتُ المضيَّ في ساعاتِ ذاكَ النهارِ إلى أن توقّفَ القلبُ والزمنُ عندَ رؤيتِكِ. في تلكَ اللحظةِ مرّتْ عليّ سنةٌ كاملةٌ أحسسْتُ فيها من خلالكِ ببرودةِ الشتاءِ وحرِّ الصّيفِ، رأيتُ في وجهكِ ثورةَ الربيعِ ورحيلَ الخريفِ كما لو أنّكِ الجنّةُ التي وُعِد بها المؤمنون إكراماً لصلاتِهم وتُقاهم.

في ذاكَ الحينِ قالَها القلبُ قبل اللِسانِ أُحِبُّكِ، تلكَ الكلمةُ التي جَمَعَتْ حروفَ الألمِ والحرقةِ والبُكاءِ وكثرةِ الكلامِ، فأعيشُ مع ألمِ الحنينِ إليكِ كُلّ برهةٍ وأحترقُ بنيرانِ الشوقِ كلَّما مررتِ بذاكرتي فلا أجدُ سوى الدموعَ ملاذاً يحملُ عنّي ما بأشجاني من فرحٍ وغبطةٍ يبعثان الحياةَ في الأوراقِ الخاليةِ من الأيامِ.

ها أنا ذا أحاولُ أن أرسُمَ بتلكَ الكلماتِ لوحةَ حبِّ الحياةِ التي بدأتْ عندما توقّفتِ الحياةُ نفسُها وأسعى جاهداً لتكوني أنتِ كلَّ الأوطانِ والأسماءِ. لقد أحببتُ الحروفَ والأقلامَ لأجلِكِ أوَ ليسَتْ هي من تصنُعُ كلَّ شيءٍ؟ أمّا أنتِ فكُنتِ شيئاً ما عهدْتُهُ قبلاً، كان اسمكِ يحملُ في ثنايا حروفِهِ الإعجازُ واللذّةُ والهربُ والمتعةُ، فكانَ الإعجازُ فيكِ خَلْقاً وخُلُقاً ولمسْتُ الهربَ عندما فرّتْ كُلُّ أحزاني في كُلِّ مرّةٍ التقينا فيها، أمّا اللذّةُ والمُتعةُ فكانتا لا تُفارقا عينيّ وقلبي حينما تكونُ الأيامُ قد جمعتْنا في إحدى ساحاتِها وساعاتِها.

مملكةُ الحبِّ

ذاتَ يومٍ مشمسٍ كنتُ أسيرُ وحيداً في الشارعِ، آلافٌ من الأشخاصِ يسيرون في رتمٍ متناسقٍ كلٌّ يبغي عملَهُ أو مصلحَتهُ.

الشارعُ يتقيّأُ الناسَ من شدّةِ الزحامِ... أناسٌ قادمون وآخرون ذاهبون كُلٌّ متفرّدٌ في رأي يختلفُ عن الآخرَ. لو أردتَ أن تجمعَهُم على رأيٍ واحدٍ لأدركْتَ أنّكَ تواجِهُ معادلةً مستحيلةَ الحلِّ.

يومَها كنتُ ذاهباً إلى المكتبةِ وسطَ هذا الزّحامِ، أسيرُ إلى مبتغايَ، لكن لا أدري ما الذي جعلَني أنشدُ غيرَ ضالَّتي.

كنتُ أمشي وأجهلُ أينَ تقودُني ساقايَ، هي المرّةُ الأولى التي لا أعرفُ أينَ أذهبُ.

وتقودُني خُطاي إلى شيءٍ لم أكنْ أتوقَّعُهُ ولم يدُرْ في خَلَدي أن أحلُمَ بهِ...لم أكنْ حتى أتخيّلهُ....

لقد دخلْتُ عالماً جميلاً مفعَماً بالحياةِ.... عالماً نشيطاً...عالماً واثقاً عالماً حالماً هائماً لقد عرفْتُ أينَ أنا. إنّني في مملكةِ الحبِّ.....

البحثُ عن الحريّةِ

في مدينةٍ ما كنتُ أحاولُ البحثَ عن شيءٍ... لكنّ الليلَ أسدلَ ستائرَهُ عليها وأصبحَتْ صاخبةً بالهدوءِ بعدما كانتْ راكدةً بالضجيجِ، وسُمِعَتْ آهاتُ العاهراتِ والثّكالى وقليلاً من أصواتِ الحاناتِ المخمورةِ وفي الأطرافِ كان يُسمعُ ضحكاتُ المتسكّعين والصعاليكِ ممّن لفظَـهُم الزمنُ، ولمّا كانَ الليلُ وهدوئَـهُ يطغيانِ بشدّةٍ ازدادَ تحقيقُ مُرادي صعوبةً، فجِلْتُ بعيّنيّ في السماءِ وكانتْ ثقوبُ النّورِ قد ازدادتْ بروزاً ووضوحاً، أمّا القمرُ فكانَ هلالاً شاحباً يصلُ ضوءُهُ الفضيُّ إلى الأبنيةِ الشاهقةِ، أمّا الأزقّةُ فقد غمرتْها الظلالُ.

عدْتُ إلى نفسي وبدأتُ بتحديدِ ماهيّةِ الشيءِ الذي أبحثُ عنـهُ. كانَ حَدسي يقولُ أنـّهُ كالشّمسِ ولكنـّهُ ليسَ شمساً... وأيضاً أنّه لا جَدوى للحياةِ بدونِهِ لكنـّهُ ليسَ حُبـّاً، تساءَلْتُ... أهوَ ذكرٌ أم أنّ روحَ الأنوثةِ قد غلبَتْ عليهِ؟

ومشيْتُ على غيرِ هُدًى فصادفْتُ بائعةَ الكبريتِ، فسألتُها عنه فقالتْ: إنّهُ النورُ الذي تبعَثهُ أعوادُ ثقابي ثم ما يلبثُ أن ينطفئَ... تفكرْتُ قليلاً فوجدْتُ أنّ النورَ من صفاتِهِ وليسَ هو، ثم تابعْتُ المضيَّ فوجدْتُ عُمَرَ الخيامِ وقد ملأَ الصفحاتِ شعراً وحزناً وألماً على فِراقِ مَن أحبَّ.

فسألتهُ ما يكونُ ذاكَ الشيءِ فردَّ عليَّ: نحنُ محكومون بالعيشِ داخلَ أشياءَ تشبهُهُ ولكنّ تلكَ الأشياءَ لنْ تستطيعَ الرُقيَّ إلى مستواهُ. فزادَني جوابُه حيرةً... يا إلهي ما يكونُ ذلكَ الشيءُ أهوَ الماءُ ولكنّ الماءَ ليس مُنيراً أم أنّه الوطنُ لكنّ جميعَنا لنا أوطانٌ تحتضنُنا ونحتضنُها وإذاً هي موجودةٌ.

وشارفَتِ السّاعةُ على الاقترابِ من الثّانيةِ والنصفِ، وعمّ الظلامُ في الأجواءِ عندما غابَ الهلالُ الشاحبُ، فازدادتْ تساؤلاتي

سوداويّةً فلا انفراجاتٌ ولا سُبُلٌ تدلّني على ذلكَ الشيءِ فأحسسْتُ أنَّ رأسي يكادُ ينفجرُ بعدما غزاهُ الصداعُ.

وجلسْتُ على الرصيفِ أريّحُ العقلَ والجسدَ ورحْتُ أمحّصُ وأستنتجُ استنتاجاتٍ عدّةٍ أوصلَتْني إلى أنّ العلمَ هوَ ضالّتي، فصرْتُ أبرّرُ وأشرحُ لذاتي ذلكَ في سبيلِ أنْ أصلَ لقناعةٍ تضمنُ لي أنّ العلمَ هوَ ما أنشدُ.... وأنا على تلكَ الحالِ مرّ بي رجلٌ عجوزٌ يغمرُه الوقارُ وتفيضُ منـه الحكمةُ فسألَـني ما بكَ؟؟؟؟

قلتُ لهُ حينها أشعرُ أنّي فاقدُ شيءٍ هامٍّ في حياتي ولن أستطيعَ العيشَ دونَ أن أعرفَ ما هوَ، ولقد علمْتُ أنّهُ منيرٌ كالشمسِ ودافئٌ كالحُبّ ولا جدوى للحياةِ بدونـِهِ، وقد قالَ لي أحدُ الشعراءِ أنّنا نعيشُ داخلَ نفحاتٍ منه، وقد كِدتُ أصلُ إلى أنّهُ العِلمَ، فالحكمةُ القديمةُ التي تقولُ " العلمُ نورٌ والجهلُ ظلامٌ " تؤكّدُ على أنّه منيرٌ، وأيضاً مَن لا يتعلّمُ يبقى دائمَ التقلّبِ في أقطابِ الجهلِ،

ويقتلُه جليدُ عدمِ المعرفةِ لذلكَ العِلمُ دافئٌ أمّا النفحاتُ... فكانَ قولُه تعالى " وما أوتيتم من العلمِ إلا قليلاً " خيرُ دليلٍ على ذلكَ.

فصمتَ الحكيمُ الوقورُ قليلاً، ثمّ قالَ لي: إنّي لأقسمُ لكَ بأنّ العلمَ ليسَ ضالّتَكَ، صحيحٌ أنّه كالشّمسِ، ولكنْ على كلِّ امرئٍ فينا تستطيعُ وهوَ ليسَ ببباردٍ أو حارٍّ إنّه حياةٌ إنسانيّةٌ بأكملِها، أمّا قولُ ذاكَ الشاعرِ فكانَ أكثرُ شموليّةً ممّا ينبغي... فقاطعْتُهُ: رجاءً أنْ تقولَ لي ما هوَ؟... فخاطبَني بلغةٍ أرادَ من خلالِها شيئاً لم أدركْهُ، وقالَ لي: لا لنْ أقولَ لكَ بل سوفَ أدعُكَ الآنَ لتصلَ إليهِ وتدركَ قيمتَهُ بنفسِكَ فيما بعدُ... ثمّ غادرَ بعدَ أن أرغمَني على العدولِ عن طريقةِ تفكيري، وبدأتُ التفكيرَ من جديدٍ فيما يكونُ ذلكَ الشيءُ وتراجعْتُ عن فكرةِ أنَّ العلمَ هوَ ضالّتي، وبدأتْ خيوطُ الفجرِ بالتسلّلِ إلى السماءِ قادمةً من الأفقِ، وبدأتْ أفكاري تستنيرُ

شيئاً فشيئاً إلى أن أشرقتِ الشمسُ وأشرقتْ ضالّتي في رأسي وقد عرفْتُها...

إنّها امرأةٌ رائعةُ الجمالِ حسناءَ بهيّة توجدُ الإنسانيّةُ بوجودِها وتنعدمُ بغيابِها، إنّها تلكَ التي تحقّقُ الانسجامَ بينَ القلبِ والعقلِ والقلمِ، إنّها تلكَ التي تُتمّمُ كلّ إنسانٍ فلا يسأمُ من عمرهِ.

إنّها الحريّةُ!!!!؟؟؟؟

الرجلُ الصغيرُ

منذُ فجرِ عمرِهِ كانَ الظلمُ يتربّصُ بهِ أينما حلَّ، ولكنّهُ لم يتنبّهْ لذلكَ بسببِ صِغرِ سنّهِ وقِلّةِ خبرتِهِ في بحرِ الحياةِ ودوّاماتِهِ، وعندما طالَ مكوثُهُ في هذهِ الدّنيا لاحظَ مدى قسوتِها عليهِ ولينَها مع الآخرين ممّن هم في سنّه، ومن تلكَ اللحظةِ بدأَ العملُ والجدُّ كي يعطيَ لسنواتِهِ طعماً ولوناً لكنّ أقربَ الناسِ إليه كانَ سبباً في زيادةِ بؤسهِ وشقائهِ، فلم يزدْهُ ذلك إلّا عزيمةً وإصراراً ليلبّيَ رغباتِ نفسِهِ الجامحةِ.

في إحدى اللحظاتِ جمعَتني به الصُدفةُ في أقسى مكانٍ يُمكنُ أن يلتقيَ به اثنانُ، أردْنا الحديثَ سوياً لكن دويّ المدافعِ والنيرانِ سبقَنا، قاتلْنا جنباً إلى جنبِ عدوٍّ غاشمٍ، كانَ يحسبُهُ سببَ شقائهِ الأوّلِ، فأطلقَ رصاصَهُ بغضبٍ تجاهَ الغزاةِ يقتلُ واحداً ويصيبُ آخرَ، وأنا قابعٌ في مكاني أراقبُ حدّةَ وتيرتِهِ وكيف صنعتِ الدنيا رجلاً كانَ يجبُ أن يكونَ في عُمرِ الزهورِ اليانعةِ.

كان النصرُ حليفَنا في ذلك اليومِ، وراحَ القادةُ يعطونَ أوامِرَهُم بضرورةِ التّقدُّمِ، وعندما تقدَّمنا معاً مررْنا بقريةٍ صغيرةٍ تابعةٍ للعدوّ، وقد خَلَتْ من رجالِها ولم يبقَ فيها سوى النساءِ والأطفالِ فلم نكترثْ لأمرِهم وتابعْنا المُضيّ، إلّا أنّ فتاةً صغيرةً من تلكَ القريةِ أومأتْ لهُ بالمجيءِ إليها فاستجبتُ أنا وهو لإيماءَتها، وعندما دنونا منها وجدناها فتاةً غيّبتِ الحربُ ضحكَتها، فأحسسْنا أنَّنا كنّا السببَ في ذلك، وفجأةً وثبتْ تلكَ الفتاةُ كالأفعى وزرعتْ حربَتها في صدرِ صديقي الرجلُ الصغيرُ، فسقطَ مغشياً عليه وبدأَ يلفظُ أنفاسَه الأخيرةَ، انحنيتُ لأطمئنَّ عليهِ فخرجَتْ منهُ كلماتٌ متقطّعةٌ وفي شيءٍ من الحبورِ، قال لي: أرأيْتَ هذهِ الفتاةَ... قاطعْته: هل أقتُلُها لكَ. قالَ: لا، إنّها دُنيّتي مُذّ وُلِدْتُ إلى هذه اللحظةِ أرجوكَ أن تدعَها وشأنَها وأسلمَ الروحَ إلى بارئِها، ونهضْتُ وقد تملّكَني الغضبُ والحزنُ، أردْتُ أن أنتقمَ، وملأتني رغبةٌ في قتلِ تلك الفتاةِ لكنّي تذكَّرْتُ كلماتِه، فاقتربْتُ منها فأرادَتْ

أن تقتُلَني أيضاً، لكنّي نزعتُ الحربةَ من يدِها وصفعْتُها فولّتْ هاربةً، وأنا تابعْتُ المُضيَّ برفقةِ زملائي من الأحياءِ، أمّا الشهداءُ فحملتُهم أكفُّ الملائكةِ إلى جِنانِ الخُلْدِ، وبقيَ ذلك اليومُ في الذاكرةِ وأبى الخروجَ إلى الآنَ.

سُؤال

في إحدى المساءاتِ رنوتُ إلى السماءِ فوجدتُ فيها النجومَ تتلألأُ... ولا يُحصَي عددُها إلاَّ مَن خلقَها فراودَني سؤالٌ: تُرى أينَ موقعي من هذا العالمِ الرّحبِ بنجومِهِ وأفلاكِهِ وكلُّ شيءٍ فيهِ...؟؟

مضى نحو ثلاثِ سنواتٍ مُذّ راودَني هذا السؤالُ لأوّلِ مرّةٍ، وإلى الآنَ لم أجدْ له حلاًّ تعلّمْتُ الكثيرَ ولا أزالُ أتلقنُ العلمَ علّيَّ أجدُ ردّاً يُريحُني ولا يستمرُّ إلحاحاً كُلّما زادَ عليهِ الوقتُ....

أحياناً أجيبُ نفسي بأنّ هذا الكونَ الشّاسعَ ما هو إلّا آياتٌ وضعَها اللهُ لعبادهِ كي تكونَ دلالاتٍ على أحقيّةِ عبادتهِ... هوَ وحدُهُ دونَ

سِواهُ من الأربابِ التي اختلقَها الخيالُ البشريُّ، لكنّي لا أقتنعُ بهذا الجوابِ قناعةً تامةً، وأبدأُ رحلةَ البحثِ المضنيّةِ من جديدٍ، وإلى الآنَ لم أجدْ ما يشفي غليلي....

أنا أعرفُ أنّ البشرَ أجمعين مترفّعين عن باقي المخلوقاتِ بالعقلِ، لكنْ ما الذي يُمكنُ أن يحدثَ لو كانَ لكلّ مخلوقٍ لبٌّ يفكّرُ فيهِ كالإنسانِ تُرى مَن سيحكُمُ مَن؟ هل ستحكُمُ الأرضَ الأسودَ ملوكُ الغاباتِ؟!!! أم أنّ للحيواناتِ كبارُ الحجمِ لها رأياً مختلفاً.

علّمتني الدنيا الكثيرَ وممّا تعلّمتهُ أنّ هذا السؤالَ الذي أرّقَني ويؤرّقُني لن أجدَ لهُ حلّاً يأتيني على طبقٍ من ذهبٍ بل يحتاجُ إلى سعيٍ دؤوبٍ وعلومٍ متأجّجةٍ، لكنَّ عهداً منّي أمامَ اللهِ سأواصلُ نَهلي من هذهِ الحياةِ حتّى أحيطُ بهذا اللغزِ علماً....

سأبذلُ كلّ ما بوسعي لحلّ هذهِ المعضلةِ ليسَ رياءً أمامَ الناسِ الذين يلمّون بمأساتي بل لأنّ هذا السؤالَ أضحى تحدٍّ شخصيٍّ لن تقرَّ عينيَّ قبلَ أن أنتهيَ منهُ.

إمّا أنا أو هو وليرشدَني اللهُ إلى الطريقِ السّويِّ كي لا أتوهَ في غياباتِ الضّلالِ إنّهُ مرشدُ الضّالينَ....

قناعة

كانَ يسيرُ في الشارعِ المُكتظِّ بالنّاسِ يصطَدمُ بأحدِهم فيُصرخُ بوجهِهِ، لكنّهُ لا يأبَهُ لذلكَ ثم بآخرَ، فيُعتذرُ لهُ فلا ينطقُ ببنْتِ شفةٍ رغمَ كلّ هذا الازدحامِ في الشوارعِ وعلى الأرصفةِ إلا أنّهُ كانَ وحيداً بأفكارهِ وخيالاتهِ، ظلَّ يمشي وعيناهُ تلعقانِ دربَهُ الطويلَ إلى أنْ وقعَ تحتَ ناظريَهِ شيءٌ أثارَ اهتمامَهُ.

لقد وجدَ بضعةَ كُتُبٍ مرتّبةٍ بأناقةٍ موضوعةٍ بجوارِ إحدى المكتباتِ، فاتّجهَ إليها مباشرةً وهو يحدّثُ نفسَهُ قائلاً: رُبّما تفيدُني هذهِ الكُتُبُ في تحقيقِ مُرادي، وما إن اقتربَ وقرأَ العناوينَ حتّى جحظَتْ عيناهُ وتغيّرَ لونُ وجهِهِ وتسمّرَ في مكانهِ، فكانتِ العناوينُ كالتالي: تعلّمي أصولَ الطّبخِ - ماذا تعرفُ عن عالمِ الطّير؟ - عالمُ الرشاقةِ. الخ.....

رجِعَ من حيثُ أتى وازدادتْ حالَتُهُ سوءاً، فقد تلّقى صفعةً قويةً من هذهِ الكُتُبِ التي كانَ يضعُها في درجةٍ أدنى من السخافةِ، سارَ

في دربِهِ وفكرُهُ يجولُ فيما حدثَ معه، فقالَ في سِرِّه: كيفَ تحوي تلكَ الكُتُبُ هكذا سخافاتٍ ومَن الذي يهدرُ أموالَهُ عليها؟؟ يا إلهي هل جُنَّ الناسُ أم فقدُوا عقولَهم؟ تابعَ سيرَهُ ولا يزالُ التساؤلُ يسيطرُ عليهِ هل؟ كيف؟ لماذا؟ ولِمَ؟

إلى أن وجدَ شيئاً آخرَ أثارَ سخريّتَهُ، لقد وجدَ شابّاً قويَّ العضلاتِ طويلَ القامةِ، يعزفُ على آلةٍ موسيقيّةٍ مع بعضِ الحركاتِ البهلوانيّةِ، وحولَهُ جماعةٌ من الناسِ، تدفعُ أموالَها مسرورةً مبتهجةً لما يفعلُ. تساءَلَ في نفسهِ: أَإلى هذا الحدِّ وصلتْ سذاجةُ البعضِ؟ وهل فقدَ اللبُّ مكانَهُ ومكانتَهُ؟ ثم عرجَ إلى إحدى المقاهي وأخذَ جانباً قصيّاً ركنَ إليهِ، وبدأَ يُمحّصُ عن بابٍ أو نافذةٍ أو أيِّ شيءٍ يُخرِجُهُ من عالمِ التساؤلاتِ الذي تملّكُهُ، وأطاحَ بأحلامِه الورديّةِ.

جاءَ إليهِ النادلُ وقالَ لهُ بأدبٍ: ماذا تريدُ أن تطلبَ يا أستاذُ؟ فلم يَرُدْ، أعادَ السؤالَ مرّةً واثنتين فلا يأخذُ أيّ ردٍّ، فانصرفَ النادلُ إلى شؤونِهِ، وبقيَ الرّجلُ يُمحّصُ ويبحثُ ليصلَ إلى نتيجةٍ ترضيهِ، ولكنْ عبثاً تأتي به أفكارٌ وتروحُ به الخواطرُ.

بينَ الفينةِ والأخرى يدعُ لأصابعِهِ حُرّيةَ اللعبِ في شعرِ رأسِهِ، يدخلُ زبائنُ ويخرجُ آخرون وهو في مكانِهِ لا يُفارقُهُ ولا يغيّرُ وضعيَّتَهُ، وكأنّهُ أصبحَ مع الكُرسيِّ قطعةً واحدةً، وعادَ النادلُ ليسألَهُ عمّا يريدُ مرّةً أخرى لكن بدونِ فائدةٍ...

انتصفَ الليلُ وهو ما زالَ في نفسِ الموضعِ والوضعيةِ، شعرَ بالتعبِ والإرهاقِ الشديدين، أحسَّ بأنّ في رأسِهِ طبولٌ وأجراسٌ تُقْرَعُ. فجأةً... صرخَ صرخةً مدويّةً بعثرَتِ الصمتَ السّائدَ في أرجاءِ المكانِ، نظرَ إليهِ مَن كانَ موجوداً باستغرابٍ ودهشةٍ، وأجمعُوا على أنّهُ فقدَ صوابَهُ، فأسرعَ إليه النّادلُ وطلبَ منهُ

الخروجَ، فما استجابَ لهُ لا. بل ولم يرفعْ ناظرَيهِ من على سطحِ الطّاولةِ، حاولَ النّادلُ استخدامَ العنفِ لكن دونَ جدوى، وعندما اقتربتِ السّاعةُ من الواحدةِ والنصفِ رفعَ ناظرَيهِ عن المنضدةِ.

ارتسمتْ على مُحيّاهُ ابتسامةً عريضةً، وجالَ بعينَيهِ في المقهى، فوجدَ بعضَ العاملين، وأطلقَ ضِحكةً عاليّةً، واتّجهَ نحوَ العاملِين قبّلَهم بحرارةٍ واحداً تلوَ الآخرَ، وخرجَ إلى الشارعِ ليجدَهُ وحيداً سيطرَ عليهِ الموتُ والجمودُ استمرّ في ضحكِهِ وقهقهتِهِ.

وأخيراً أمسكَ بضالَّتهِ وحلَّ مُعضلتَهُ، لقد توصّلَ إلى نتيجةٍ وضعَها نُصبَ عينَيهِ دائماً وأبداً وعدّها قناعةً: بقدْرِ ما هناك أناسٌ وأشخاصٌ بقدْرِ ما هُم وحيدون كُلٌ منهم في حدائقِ أحلامِهِ. ليستِ السخافةُ فيما يفعلونَهُ البعضُ ويهدرون أموالَهم عليه، إنّما السخافةُ في أن تدقّقَ فيما يفعلون ولِمَ!!!

كما تسخرُ من البعضِ. البعضُ يسخرُ منكَ.

فقدتُ نفسي

يصعُبُ على المرءِ أحياناً تصديقُ ما يحدثُ... لكنَّ الذي حدثَ ذلكَ المساءُ أنّني فقدتُ نفسي وفاضَتْ روحي منّي ولم أدرِ ما أفعلُ سوى أن أستمعَ لتلكَ الأغنيةِ الشعبيّةِ القديمةِ: يا أسمرَ اللّونِ...يا أسمراني والقلبُ تعبان خيّو...

تُرى هل هو التعبُ الذي احتلّني فجأةً...لكنْ وإن كنتُ تعباً فهل يُمكنُ للرّوحِ أن تتعبَ وهي التي تسبحُ دائماً في أفُقِ النفسِ، كُلُ ذلكَ حدثَ معي خلالَ بُرهةٍ وجيزةٍ توقّفتْ فيها الأرضُ عن الدورانِ، كانَ ذلكَ بركاناً انفجرَ بوجهي وأحرقَني ونسيتُ تلكَ الحكمةَ القديمةَ " يُؤخذُ الحذرُ من جانبهِ " فقتلَتني حبيبتي تلكَ التي وهبْتُها الحُبَّ بكُلِّ أشكالِهِ وألوانِهِ فردّتْ عليّ بنيرانٍ وحرائقَ جمّةٍ.

كثيرون مَن يقولون " ما أجملَكَ أيّها الزمنُ هل لكَ بالوقوفِ " وأنا أقولُ ما أسوأَكَ أيُّها الزمنُ لماذا اخترتَ هذا التوقيتَ

بالتحديدِ!! لتديرَ لي ظهرَكَ وترمُقَني كُلّ لحظةِ بنظرةٍ لعينةٍ تثيرُ فيَّ عواصفَ الأسى، فأكبحُ جِماحَها بِبُكاءٍ يروي البوادي وينعِشُ الأراضي البُورَ التي كانت قَدَرَ قريتي الصغيرةِ.

في هذهِ اللحظةِ وأنا أخطُّ هذه السّطورَ كم أحنُّ إلى تلكَ القريةِ الصغيرةِ التي احتضنَتْني يومَ كنتُ طفلاً، وكان زادي البساطةُ وشرابي العفويّةُ، كنتُ أعيشُ مع الحياةِ بكلِّ ما فيها، ورغمَ كُلِّ السذاجةِ التي أحاطَتْ بي في ذاكَ الوقتِ، إلّا أنّ السعادةَ كانتْ تغمرُني دونَ أن أعرفَ لماذا؟

والآنَ وبعدَ أن نَزَلتُ إلى هذه المدينةِ الكبيرةِ، وفقدتُ كُلَّ شيءٍ وأوّلُ تلكَ الأشياءِ قلباً نقيّاً، كانَ يسكنُ بين أضلُعي ولِساناً لا يعرفُ الكذبَ والرياءَ، أحاولُ أن ألملمَ نفسي وأجمعَ أشيائي لأستعدَّ للذهابِ بعيداً، ومن دونِ رجعةٍ سأذهبُ للعيشِ في الماضي علّني أجدُ نفسي بعدما فقدْتُها في غياهبِ المدينةِ التي لا تعرفُ

سوى المصالحَ واستبدلتِ القيمَ والأخلاقَ بالمالِ والنفوذِ وحتّى الحبَّ أروعَ ما خلقَ اللهُ غدا تجارةً خاسرةً.....

إلى من أحبُّ ....

سألتْني مرّةً أتحبُّني ....؟؟؟؟

قلتُ لكِ حينَها وبكثيرٍ من الثّقةِ! سأروي لكِ كيفَ أحببْتُكِ منذُ البدايةِ وكيف أحببتُ العواطفَ الجيَّاشةَ والأحاسيسَ الفيّاضةَ داخلي، وسأقصُّ عليكِ أيضاً حكايا النّشوةِ التي عِشتُها وأعيشُها مع وجودِكِ بقربي ومع طيفِكِ عندما يُبعِدُنا الزمنُ، ولن أنسى أن أقولَ لكِ لِمَ أحببتُكِ؟ وسوف أعرّفُكِ على المدى الذي سيحتضِنُنا معاً.

في إحدى الأيامِ وبينما كنتُ متوجّهاً إلى الجامعةِ لأنهلَ العِلمَ رأيتُكِ في الشارعِ كنتِ فتاةً غيرَ عاديّةٍ لم تكوني ككُلِّ الفتياتِ، وعندما دنوتُ منكِ أكثرَ اكتشفْتُ بأنّكِ لم تكوني فتاةً بل كنتِ معجزةً في الجمالِ تتعالى فيكِ روحُ الوِئامِ ويتسامى الحنينُ داخلَ عينَيكِ....

لكنْ إلى مَن يكونُ الحنينُ؟؟؟....

عندها أثارَ الفضولُ قلبي وقرّرَ أن يتمهَّلَ ليتعرَّفَ أكثرَ عليكِ ولم أدرِ أن هذا الفضولَ كانَ وراءَ حبّي لكِ فتبِعَتكِ قدمايَ بخطىً حائرةٍ يوجِّهُها القلبُ أيّنما ذهبْتِ، ولم أكنْ أخشى رمقاتِ الشُبّانِ أو نظراتِ الفتياتِ من حولي.

كنتِ متوجّهةً في ذلك اليومِ إلى دارِ الحضانةِ التي كنتِ تبثّينَ فيها العِلمَ والحُبَّ بحثاً عن لُقمةِ العيشِ لكِ ولوالدتِكِ المريضةِ.

طالَ انتظاري أمامَ بابِ تلك الدارِ ونالَ التّعبُ منّي فقرّرْتُ الرّحيلَ وقبلَ أن أرحلَ ألقيتُ نظرةً على مخرِجِ الدّارِ فكنتِ خارجةً بخطًى متثاقلةً ولم يقدِّرِ التعبَ والإعياءَ أن يُخفيا حُسنكِ وجمالكِ، فرمقْتِني بنظرةٍ لم أعرفْ ما سِرُّها؟ وسِرتِ فتبعْتُكِ وقد انتفضَ عنّي تعبي وبعدما قطعْنا المسافةَ الواصِلةَ بين دارِ الحضانةِ ومنزلكِ وجدتُكِ تدخُلينَ منزلاً بسيطاً يُوحي بالأمانِ والطُمأنينةِ،

وانتشرتْ من حولِهِ الورودُ والأزهارُ، حينها قلتُ في نفسي: إذاً هذا هو مسكنُ تلكَ الصبيةِ.

وعدتُ إلى البيتِ وعندما بَسَطَ الليلُ جناحَهُ على المدينةِ أردْتُ مراجعةَ بعضِ المحاضراتِ القديمةِ، لكنْ كانَ هناك ما يُشغلُ بالي، فنزلْتُ إلى الشارعِ لأروّحَ عن نفسي قليلاً، فلم أشعرْ بنفسي إلّا وأنا أمامَ منزلِكِ، فرنوتُ إلى الشرفةِ التي تُطلُّ على الشارعِ فرأيتُكِ من خلالِها في تلكَ اللحظةِ، كنتِ تبدين كالجمالِ أو أشدّ منهُ جمالاً وخاصةً عيناكِ اللتانِ احتوتا الرِقّةَ والبراءةَ فكانَ لمعانُهما يُثيرُ فيَّ عذوبةَ الأطفالِ...

كانتا تبُثّان عبقَ الليالي القمراءِ بأفراحِها، وتنشُران أطيافَ الودِّ في كُلِّ مكانٍ تنظُرين إليه وشعرُك الذي هوى على كتفيكِ كشلّالٍ من الليلِ السّاحرِ بسكونِهِ وإيحاءاتِهِ، كان كالقمرِ الذي يبعثُ الضوءَ إلى ليالي عينَيك وأماسي حُلُمي.

في ذاكَ الحينِ اجتمعَ الليلُ والقمرُ والنجومُ لِتهنِّئني الحياةَ التي كنتُ أحلمُ بها.

ومشيتُ عائداً إلى البيتِ بعدما اطمأنّ قلبي إلى مسكنهِ الجديدِ، وكانَ الدّربُ مليئاً بالأنوارِ والأصواتِ لكنَّها لم تقدِرْ أن تُخفيَ عنّي نورَ وجهَكِ الذي كان كالشّمسِ التي تُذْهِبُ أضواءَ النّجومِ ولا صوتُ خفقَ قلبكِ الذي كان كهديلِ الحمائمِ مع مطلعِ كلِّ صباحٍ.

سِرتُ والفرحُ يملأُ كياني وصورتكِ لم تكنْ لِتُفارقَ خيالي، كانتْ فينوسُ آلهةَ الحُبِّ والجمالِ عند قُدامى اليونانِ وأنتِ أصبحْتِ فينوسي التي أقدّسُها، كانَ جمالُكِ قد احتوى عُذريّةَ بثيّنةَ وسِحرَ بلقيسَ وبهاءَ كيلوباترا وعطاءَ عشتارَ، فانفطرَ فؤادي بكِ عشقاً وعندما وصلْتُ إلى المنزلِ تناولتُ القلمَ ورحتُ أحكي للأوراقِ عن حُسنِكِ وأبوحُ للدّفاترِ بأسرارٍ لم تكنْ لِتعرفَها لولاكِ ووحدها الوسادةُ التي كنتُ أضعُ رأسي عليها كانتْ تعرفُ أحلامي بكِ

وكانتِ الساعةُ تعلمُ مدى شوقي إليكِ في كُلِّ مرّةٍ يكونُ هناك موعداً بيننا.

في البدءِ احترتُ كيف أعبّرُ لكِ عمَّا يختلُجُ بصدري من حُبٍّ.

هل أبعثُ لكِ بورقةٍ تحكي أسرارَ قلبي أم أنّي أُحمّلُ أحدَ تلامذتُكِ الأطفالُ رسالةً شفهيّةً إليكِ لتصلَكِ مع عذبِ الطّفولةِ أو أذهبُ إليكِ وأقولُ لكِ بكثيرٍ من الارتجالِ والعفويّةِ أُحبُّكِ لكنّي في النهايةِ قررْتُ أن أُقابلَكِ وجهاً لوجهٍ وأقولُها لكِ، وبعدما أتى اليومُ المناسبُ بعدَ كثيرٍ من عذابِ الانتظارِ توجَّهْتُ إليكِ بعزمٍ وعندما اقتربْتُ منكِ أكثرَ امتلأَ الشَغَفُ بالشِّغافِ، وقالَها القلبُ قبلَ اللِّسان (...أنا بحبك...)

وعندها اغرورقَتْ عيناكِ وتساقطَتْ منها لألئ الدموعِ وغادرْتِني راكضةً إلى البيتِ، وأنا وقفتُ تائِهاً مُشتَّتَ الفِكرِ والقلبُ، فحدّثَتني نفسي:

- لِمَ فعلْتَ هذا؟

- ما كانَ عليكَ أن تقولَها لها!

- كانَ يجبُ أن تنتظرَ أكثرَ!

- هل جرحْتَها؟

بعدَ تلك اللحظةِ انهارَ القلبَ وأدمى الفؤادَ ألماً فبقيتُ سجينَ البيت والهوى مدى سبعةِ أيامٍ مضتْ، وكأنَّها سبعُ سنونٍ عِجافٍ كُلّها لهفةٍ وانتظارٍ، وقد كنتُ أعلمُ أنَّ الانتظارَ أبطأُ قاتلٍ لكنّي كنْتُ أعيشُ على أملِ أن أسمعَ صوتَكِ أو أرى وجهَكِ الذي صارَ قِبلتي الجديدةَ، وفي آخِرِ ليلةٍ من ليالي العذابِ والأرقِ شعرتُ بضرورةِ أن أذهبَ إليكِ وأعتذرَ عمّا بَدَرَ منّي وأتابعَ حياتي كما لو أنَّ شيئاً لم يكنْ.

وفي الصّباحِ توجَّهْتُ إلى منزلكِ بنشاطٍ وقرعْتُ البابَ بهدوءٍ وبعدَ بُرهةٍ فتحْتِ البابَ، فكادَ الانهيارُ يغتالُني فتمالكْتُ نفسي

وقلتُ لكِ باقتضابٍ: أنا أعتذرُ عمَّا قلتُ في ذاك اليومِ، فقلتِ لي بشيءٍ من الحياءِ واللومِ: لا. لا تعتذرْ عمَّا باحَ به قلبُكَ وطلبْتِ منّي بكثيرٍ من الأدبِ أن نلتقيَ في المقهى القريبِ لدارِكِ في اليومِ التالي، وبعدها اختفيْتِ وراءَ البابِ أمّا أنا فقد سيّطرَ عليَّ التساؤلُ مرّةً أخرى وعادَتْ إلى ذاكرتي تلكَ الأحلامُ التي راودَتْني عشيّةُ اليومِ الذي رأيتكِ فيه أوّلَ مرّةٍ، وراحتِ الآمالُ تأتيني من كُلِّ حدبٍ وصوبٍ مع كُلِّ خُطوةٍ أخطوها تُجاهَ المنزلِ، فلا الشوقُ يقدِرُ أن يصِفَ ما كانَ داخلي ليومِ غَدٍ الذي قرَّرْتِ أن يحتضنَ لِقاءَنا الأوّلَ، ولا الحنينُ استطاعَ أن يبعثَ لي بعزاءٍ أنَّ ذاكَ اليومَ قادمٌ.

ووصلتُ إلى البيتِ وأمضيتُ الليلَ ساهراً أشدو وأسمعُ أغنيةَ " أغداً ألقاك " لكوكبِ الشّرقِ وكنتُ في كُلِّ مرّةٍ أسمعُها أزدادُ اشتياقاً لكُلِّ ما فيكِ إلى أن طَلَعَ الصباحُ الذي تذوَّقْتُ حلاوتَهُ من قطراتِ النّدى التي أنعشتِ المدينةَ وانتظرتُ ساعاتٍ كثيرةً حتى

أتى موعِدُنا فتأنَّقْتُ حتى خِلتُ نفسي عريساً يرومُ الدخولَ إلى عروسِهِ، وتوجَّهْتُ إلى المقهى وأخذْتُ جانباً قصيّاً متلهّفاً قدومَكِ توّاقاً إلى عينَيكِ، وبزغَ الفجرُ من جديدٍ مع دخولكِ فكانَ لباسُكِ يحتوي التعقيدَ البسيطَ ومشيتُكِ تُوحي بالخُيلاءِ والتواضُعِ في آنٍ واحدٍ، وجلستِ أمامي بعدما ألقيتِ التحيةَ ورحتِ تسردين عليَّ باختصارٍ حكايا الشّقاءِ التي عانيتِ منها، فكانتْ وفاةُ والدِكِ أحدَ أكثرِ الأمورِ إيلاماً بالنسبة لكِ، وعندما أنهيتِ حديثكِ سألتُكِ عن سببِ بُكائكِ في ذاك اليومِ، فقُلتِ لي: إنَّ تلك الكلمةَ لم تسمعيها سوى مرّاتٍ قليلةٍ بحياتكِ، ولم تكنْ إلّا من والدتِكِ المريضةِ التي غيّبَ المرضُ صوتَها ووالدُكِ الراحلُ، فقلتُ لكِ إنَّكِ دخلْتِ القلبَ من أوسعِ أبوابِهِ، ولن يُخرِجَكِ منه سوى الموتُ، فرددْتِ عليَّ بقولكِ: أمّا أنا فلم أشعُرْ بذلكَ بعدُ، ولكني ارتحْتُ لك، وختمتِ بتحذيرٍ وجَّهْتهِ لي وأنتِ تقولين: إنَّ كُلَّ تلك المآسي التي مرّتْ بحياتي لم تكُنْ لتُضعفَني تُجاهَ الحياةِ بل زادَتني درايةً بها، وتتالَتْ

لقاءاتِنا بعدَ ذلك وكنتُ في كلِّ مرّةٍ ألتقي بكِ فيها أشعرُ كأنّي عُصفورٌ صغيرٌ يطيرُ فوقَ السُّحبِ، ويسبحُ في بحورِ الفضاءِ هياماً بكِ، رحتُ أحفظُ الأيامَ التي جمعَتْنا في أوراقِ الذّاكرةِ ونبضاتِ القلبِ، كنتُ أعشقُ الورودَ التي تحوي عطرَكِ.

الآنَ تسألينني أتحبُّني...

نعم أحبُّكِ لأنّكِ مَن كانتْ تبحثُ روحي عنها في اللاشعورِ، وكانَ قلبي يحيا لأجلِكِ دونَ أن أعلمَ.

أحبُّكِ لأنّكِ الوحيدةُ التي عَلِمَتْ برجاءِ الفؤادِ من خلالِ نقاءِ قلبِها وصفاءِ روحِها.

أحبُّكِ لأنَّ الحياةَ أرسلتْ لكِ المصائبَ فأضحيتِ أكثرَ نُضجاً.

أحبُّكِ لأنّكِ المرأةُ التي تمّمتْني في هذهِ الدنيا.

أحبُّكِ لأنَّ الحنينَ داخلَ عينيكِ كانَ للحُبِّ.

يا حبيبتي....إنَّ الحُبَّ الذي يجمعُنا تعجزُ الأقلامُ والكلماتُ عن وصفِهِ وتخشى أن يُحكى لها عنهُ، فكيف يكونُ لحُبٍّ كهذا مدًى ينتهي عِندَهُ، يا حبيبتي لقد كُتبَ على الإنسانِ فناءُ الجسدِ ولكنّي واثقٌ تمامَ الثّقةِ أنّهُ وبعدَ فناءِ جسدانا ستبقى أرواحُنا متعانقةً إلى الأبدِ ويزدادُ العِناقُ في لحظاتِ الدُّجى وساعاتِ الغسقِ فيا للبُشرى في أنْ يحملَ الغسقُ والدُّجى حُبَّنا إلى السرّمديّةِ، ويُودِّعَهُ عند آلهةِ الخلودِ لتحفظَهُ في أقدسِ الأقداسِ، وتُرسلُ تباشيرَهُ إلى كلِّ مَن جمعَ الحُبُّ قلبَيهما من بعدِنا وإلى ما بعدِ بعدِ القيامةِ.

عندما يغزوكَ الصّمتُ

تمرُّ أحياناً على المرءِ لحظاتٌ لا يعرفُ ما يريدُهُ رغمَ وجودِ أمانيَّ ومتطلّباتٍ عدّةٍ تجولُ في رأسهِ، إلّا أنّه يفشلُ في ترجمتِها إلى حروفٍ تُكتبُ وكلماتٍ تُقالُ، فيلجأُ آنذاكَ إلى الصّمتِ الذي يدفنُ كُلَّ ما كانَ بخاطرِه، ويشعرُ قليلاً بأنَّ ما كانَ يبتغيهِ قد غَمرَهُ النسّيانُ، ويتابعُ أيّامَهُ بشكلٍ اعتياديٍّ دونَ أن يعلمَ أنّ كُلَّ تلكَ الأحلامِ لم تمُتْ وإنّما غَفَتْ في تجاويفِ الصدّرِ مع الحسرةِ بعدمِ تحقُّقِ المُنى والأملِ. يحدثُ ذلك عندما تتغلّبُ عليكَ تلك الفتاةُ اللعُوبُ التي يسمّونها الدّنيا.

إنّما سَبَقَ لم يكنْ تحليلاً لمريضٍ نفّسيٍّ في عيادةِ طبيبٍ ما أو تأويلٌ لهلوساتِ فيلسوفٍ شارفَ على الموتِ، بل كانَ مدّةٌ عشتُها حينَ توقّفَ الزمنُ في الساعةِ العاشرةِ صباحاً من يومِ الأربعاءِ تاريخ ١ / ٦ / ٢٠١١.

حينئذٍ أحسستُ أنَّ أطرافي الأربعةَ شُلّتْ وفقدَتِ الحركةُ وغَدَتْ كأنّها ألواحٌ جليديّةٌ، رغمَ أنّ المكانَ الذي كنتُ أقطنُهُ أحاطَتْ بهِ النيرانُ من كُلِّ جانبٍ وقامَ على أعمدةِ اللهبِ، طفقْتُ بذلكَ الحالِ ورحتُ أحاولُ أن أبعثَ في الأوراقِ القهرَ والغضبَ اللّذان تملّكاني من عدمِ قُدرتي على البوحِ، لكنَّ حِبرَ القلمِ تجمّدَ والتهمَتْ نارُ القهرِ والغضبِ ما تركَهُ اليراعُ على الورقةِ من سطورٍ كُتِبَتْ بالدّمِ أكثرَ من الحِبرِ، في ذاكَ الوقتِ جمعْتُ أشيائي كلّها وسافرْتُ على جناحِ النِسيانِ في الزمنِ،وانتقلتُ إلى اليومِ العاشرِ من شهرِ حُزيرانَ/يونيو، وبدأتُ أُمضي أيامي كما كانتْ، ولكنّي كلّما تذكّرْتُ ذلك اليومَ قفزتْ إليّ عواصفُ اليأسِ من هذهِ الدّنيا، وصَرَخَتْ داخلي أصواتٌ تُجيزُ لي الانتحارَ... تدفعُني للهلاكِ فأقاومُها بالآمالِ التي أتنشقُها كُلَّ يومٍ مع الهواءِ، وأذودُ عن نفسي بحُبِّ الحياةِ والسّعي خلفَ النّجاحِ، لأنَّ عُمْرَ الإنسانِ يُقاسُ بما نجحَ في إنجازِهِ، لذا توجَّبَ عليَّ العملُ الدؤوبُ على مدى الأيامِ، وما كانَ

ذلكَ اليومُ إلا اختباراً أرادَهُ القدرُ لي، وكانَ أوّلَ اختبارٍ لي...

والحمدُ لله أنّي خُضتهُ بنجاحٍ ولم أستطعْ ذلكَ إلّا بفضلِ الله عليَّ.

أوتار الحياة

في البدءِ لم تكنْ سوى فكرةً تتنقلُ في الرّأسِ لكنّها راحتْ تزدادُ نمواً ونُضُجاً.

مرّةً كَبُرتْ وصارتْ خاطرةً فسُطِرتْ على قرْطاسٍ عتيقٍ.

ومنذُ أمدٍ ليسَ ببعيدٍ راحتْ تأخُذُ تلك الفِكرةُ أبعاداً جديدةً، فصارتْ أملاً بعلاقةِ حُبٍّ يتبعُها زواجٌ فتكونَ علاقةً أزليّةً... لكنْ على ما يبدو أنَّ تلكَ الفِكرةَ ستظلُّ قابعةً في قُرارتِهِ هكذا، أيقنَ عندما بدأَ يطرحُها مع نفسِه للحوارِ.

فقد كانَ منذُ البِدايةِ عملياً فوقَ العادةِ ولا يأبَهُ لأيّ مشاعرٍ تعيشُ داخِلَهُ، لكنّهُ وفي الوقتِ نفسِهِ كانَ يُقدّرُ تدفُّقَ مشاعرَ الآخرين نحوَهُ أو نحوَ غيرِهِم، وهذا كانَ أحدُ تناقُضاتِهِ.

لقد كانَ بحدِّ ذاتِهِ مُجتمعاً من التناقُضاتِ، وكانَ يكوّنُ كثيراً من القناعاتِ دونَ أن يجرّبها لكن عندما تستدعي الحاجةُ أن يجرِّبَ إحداهُنّ تكونُ عندَ حُسنِ ظنّهِ وفكرِهِ.

هكذا عاشَ بين عالمَينِ مُختلفَينِ أحبَّ نارَ الحبِّ وطلبَ الودَّ من شوكِ الوردِ كانَ ينتظرُ الشِتاءَ كي يصلِبَ نفسَهُ أمامَ العواصفِ والصواعِقِ، إلّا أنَّ مَن كانَ حولَهُ سَئِموا من جنونِهِ ورمَوا بهِ في عالمٍ حُرٍّ لا يوجدُ فيهِ أشياءَ محظورةً ولا مُحرّمةً، فعاشَ مع المجانينَ دونَ أن يُجنّ. كانَ ذلك رأيُ الطّبيبِ الذي فحصَهُ وقالَ لديه انفصامٌ بشخصيّتهِ ولن تنفعَ معهُ الأدويةُ على المدى القريبِ.

في المشفى وبعد مرورِ عشراتِ الأيامِ أيقنَ أنّه لم يكُنْ يعيشُ سوى لنفسِهِ، وابتعدَ عنهُ كُلُّ الأحبابِ والأصحابِ. فاتّخذَ لنفسِهِ من الصّمتِ رداءً يسترُ بهِ جَسَدَهُ ونَفْسَهُ المريضةَ بحسبِ الطّبيبِ.

تتالتِ الأيامُ... والصّمتُ يعيشُ في كُلِّ جنباتِ حياتِهِ اليوميّةِ، كانَ يأكلُ الصّمتَ ويشربُهُ وأحياناً كثيرةً يتناولُهُ مع الدّواءِ.

في قرارتِهِ كانَ يتوقُ للتّحدُّثِ مع أحدِهِم ليقولَ له "إنَّهُ بسببِ حُبّهِ للوجوهِ الأخرى من الأشياءِ جرّدوهُ من عقلِهِ" لكنْ إلى مَن

يتحدَّثُ؟ إلى شخصٍ يحسَبُ نفسَهُ يقودُ سفينةً وقدماهُ على الأرضِ أو إلى آخرَ يجمَعُ الشَّمسَ بالنّهارِ لِتُضيءَ لهُ في الليلِ.

في أحدِ الأيامِ انفضّتِ الرّتابةُ من المشفى بسببِ قدومِ امرأةٍ في روحِ الصِّبا ينسابُ الجمالُ من تحتِ جسدِها المُلقى على حمّالةٍ يحملُها الممرّضين لأنّها حاولتِ الانتِحارَ بطريقةِ الكِبارِ والمشاهيرِ، وتناولتْ كميّةً كبيرةً من حُبوبِ النّومِ دونَ أن تترُكَ تفسيراً منطقيّاً لِفعلَتِها تلك... وكالعادةِ كُلٌّ كانَ له منطِقُهُ وتعليقاتُهُ، أحدُهُم قالَ: لا بُدّ أنَّ أحدَ الوحوشِ سَلَبَها أعزَّ ما تملكُ فخشِيتْ مِن أهلِها وأقدمَتْ على الانتحارِ وقالَ آخرُ: إنَّ فتاةً في عُمرِها تجاوزتْ عُمرَ المُراهقةِ والانجِرارِ وراءَ الشُبّانِ أنا أجزمُ أنّها فقدتْ والديها في حادثِ سيرٍ وانتحرتْ، ضحكَ ثالثٌ وقالَ: أنتم مجانينُ، بلِ النّساءُ جميعهُنّ مجنوناتٌ... أنا متأكّدٌ أنّها لم تنلِ العلامةَ المطلوبةَ لقبولِ الماجيستيرِ فأقدمتْ على الانتحارِ.

وأسرعَ الأطباءُ إلى غرفةِ العنايةِ الفائقةِ وسَبَقَتْهم المرأةُ المُلقاةُ إليها، طالَ الأمرُ ثلاثَ ساعاتٍ وبعدَها خرجُوا فرحينَ لقد نجحُوا في إعادةِ شِبهِ الحياةِ للجميلةِ ذلكَ أنّ الحبوبَ التي تناولَتْها أحدثتْ تلفاً في قلبِها سوفَ يمهلُها أسبوعاً آخرَ من حياتِها قبلَ أن تموتَ.

في صباحِ اليومِ التالي استعادتِ الفتاةُ وعيَها من أثرِ التخديرِ، وقامتْ بنظرةٍ واسعةٍ في الغُرفةِ التي أسكنوها إيّاها، فلم تكتفِ بالغُرفةِ وأرادتِ التّجوالَ أكثرَ. كانتْ تحسبُ نفسَها أنّها في القبرِ، لكنْ لم يحدُثْ أبداً أنّ أحداً تحدّثَ عن وجودِ كهرباءَ وأسرَّةً في القبورِ، سألتْ أحدَهُم: هل نحنُ في البرزخِ؟ فأطلقَ ضحكةً...ثمَّ قالَ: لا لسنا في البرزخِ لقد تجاوزْناهُ منذُ أمدٍ بعيدٍ، نحنُ في جهنَّمَ!!!!

بعدَ حينٍ اكتشفتْ أنّها لم تمُتْ بل ستعيشُ أسبوعاً آخرَ قبلَ أن تموتَ ـهكذا قالَ الأطباءُ-وفي بقيّةِ اليومِ استمرَّتْ في البحثِ عن

شيءٍ تُضيّعُ به آخرَ أسبوعِ حياتِها فعرفَتْ أنّها في مصحٍ للأمراضِ العقليّةِ...

وعَلِمتْ أنّ جميعَ مَن حولِها مجانينَ إلّا ذاكَ الشابُّ الذي غطّى نفسَهُ بالصّمتِ، لقد أحسّتْ في داخلِها أنّهُ ليسَ مجنوناً كالآخرينَ وأرادتِ التعرُّفَ عليهِ، فاقتربتْ منهُ وألقتْ تحيةً هادئةً فردّ عليها بصمتِهِ... كرّرَتْ تحيّتَها الهادئةَ فكرّرَ صمتَهُ المُحيّرَ.

أثارَ أمرُ ذاكَ الشابِّ فضولَها ووضعَتْ هدفاً لآخرِ أسبوعٍ من حياتِها هو كشفُ غموضِ الشابِّ الصّامتِ وانصرفَتْ إلى شؤونِها.

في اليومِ الذي تلاهُ ذهبتِ الفتاةُ إلى حيثُ يجلسُ هدفُها، وألقتِ التّحيةَ فردّ صدى صوتُها التحيّةَ، ثارتْ قليلاً ولم تُشعرِ الشابَّ بذلكَ ثمَّ قالَتْ: أنتَ شخصٌ مجنونٌ فعلاً وإنْ لم تكنْ كذلكَ لَمَّا وضعوكَ هُنا لكنّي لا أعرفُ لماذا أشعرُ بداخلي أنّكَ سليمٌ مِن أيّ جنونٍ، الآنَ قُصّ عليّ سببَ وجودِكَ هُنا، هيّا تحدثْ إنّي أسمعُكَ،

ألا تجرؤُ على سردِ قصّتكَ كانُوا يقولونَ خُذِ الحِكمةَ من المجنونِ، أيُّ حكمةٍ وأنتَ لا تتكلمُ أبداً؟ هل أنتَ أبكمُ؟ لا. لسْتَ كذلكَ لقد سألتُ الأطباءَ وقالُوا أنّكَ مجنونٌ غيرُ كُلّ المجانينِ ولِسانُكَ يعملُ بشكلٍ جيّدٍ، ولكنّي لسْتُ أفهمُ لماذا تصمتُ؟ها لقد عرفتُ لِمَ أنتَ هكذا؟ لأنّكَ جبانٌ!!! نعم جبانٌ وتخشى من الدّنيا كثيراً وتخشى الناسَ أكثرَ بكثيرٍ، يالِلسُّخريةِ في أنْ يكونَ رجلٌ في غايةِ الجُّبْنِ لو أنّ اللهَ خلقكَ أنثى لكانَ لديكَ بعضُ الحقِّ في أنْ تخشى كُلَّ شيءٍ حولكَ، هل تعلمُ أنّي أنا الفتاةُ التي تقولون عنها أنتم معشرَ الرّجالِ أنّها بنصفِ عقلٍ ولا تفقهُ شيئاً مِن الحياةِ امتلكْتُ شجاعةً أكثَر منْكَ، لقد واجهْتُ الموتَ لِلاشيء بل لِمجرّدِ أنْ أتعرّفَ عليهِ، وهاهو سينتشِلُني بعد بِضعةِ أيّامٍ، وأنتَ إن كُنتَ لا تُريدُ هذه الحياةَ فانتحرْ، ولكنّك لن تستطيعَ لأنّ الخوفَ يسري في عروقِكَ مع الدّمِ، هكذا أنتمْ معشرُ الرِّجالِ، تتبنّونَ القوّةَ وأنتم في أشدِّ حالاتِ الوهنِ.

فانتفضَ من مكانِهِ وصمتِهِ، وقالَ: صدقْتِ أنتنَّ فعلاً بنصفِ عقلٍ... هل يُقدمُ أحدٌ على الانتحارِ لكي يُجرّبَ الموتَ؟ أنتِ تكذبينَ لم تنتحري لتُجرّبي الموتَ بل لتهرُبي من مُشكلاتِكِ إلى الموتِ ظنّاً منكِ بأنّهُ أهونُ من المشاكلِ، ولكنّكِ لم تدركي أنّ الحياةَ بأكملِها لُعبةً، اللّبيبُ مَن يُدرِكُ كيفيَةَ لعِبِها.

وعندها تسمّرَتِ الفتاةُ في مكانِها وتحشرجَتِ الكُليماتُ في حلْقِها، أحسّتْ أنَّ حِبالَها الصوتيّةَ قد تقطّعتْ ولم تكنْ لِتعلمَ أنّ ذاكَ الشابَّ سيرُدُّ عليها بتلكَ الطّريقةِ، فانزوتْ على نفسِها وجرَّتْ أذيالَ خيبتِها بعدَ الردِّ العنيفِ الذي لاقَتْهُ من هدفِها وفي طريقِها إلى غُرفتِها راحتْ تُفكّرُ لماذا حدثَ ذلكَ؟.... مَنِ الذي أخطأَ بحقِّ مَنْ؟ قالتْ لنفسِها: أنا أردْتُ التعرُّفَ إليّهِ فقط ومعرفةَ السرِّ الذي يكمُنُ وراءَ صمتِهِ؛ لكنّني أهنتُهُ واتّهمتُهُ بالجُبْنِ، وهو أيضاً لمْ يتحرَّكْ ولم ينطِقْ ببنتِ شفةٍ عندما تودّدْتُ إليهِ، لقد تجاهلَني وهذهِ إهانةٌ

عظيمةٌ لأيِّ فتاةٍ لن أغفِرَها لهُ، من الأساسِ أنا لستُ مهتمّةً بهِ إنَّهُ مُجرّدُ معتوهٍ. تابعَتْ طريقَها وتناسَتْ ذاكَ الشابَّ وسِرِّهِ وراحَتْ تبحثُ عن أمرٍ آخرَ تملأُ بهِ أسبوعَها الأخيرَ.

أمّا الشابُّ فحدّثَ نفسَهُ: ما هذا؟ ما الذي تعرفهُ الفتاةُ عنّي وعنِ الدُّنيا بأكملِها حتّى تتكلّمُ هكذا؟ فِعلاً إنّهُنَّ فارغاتٌ من أيِّ عقلٍ، لو كانتْ شابّاً وتكلّمَ معي مثلما تكلّمَتْ لأفرغْتُ قهري كلّهُ في جَسده، لكنّها فتاةٌ تتكلّمُ لِمُجرّدِ التكلُّمِ والعبثِ لكنْ لا بأسَ بِضعةُ أيّامٍ وسوفَ تموتُ وأنتهي منها.

ومرّتْ ثلاثُ أيامٍ رتيباتٍ كأنّهم لم يمرّوا أمضتْهُم الفتاةُ تعبثُ بجسدِها والشابُّ يجولُ في صمْتِهِ، وانقَضَتْ أيضاً أيّامٌ كثيرةٌ أخرى دونَ أن يلحظَ أحداً من المشفى اختفاءَ الشابِّ المُصابِ بانفصامِ الشخصيّةِ ولا الجميلةُ التي حاولتِ الانتحارَ...لا. بل لم يكترثْ أحدٌ لغيابِهِما، لكنْ زعَمَ أحدٌ من خارجِ المشفى أنّهُ رآهما

في نهايةِ الزّمانِ والمكانِ يتبادلانِ الحُبَّ والقُبَلَ والموتَ على أوتارِ الحياةِ.

وبعدين!

كانتْ تجلِسُ إلى حيثُ تنتهي خُطاتِ الموجِ. الموجُ الذي تراكضَتْ أجزاؤُهُ في تَيهٍ وبُؤسٍ ولا تدري أينَ المُنتهى؟ وكيفَ السبيلُ للخلاصِ؟؟

كُلُّ يومٍ تُكلِّمُ الموجاتُ الصّغيرةُ الريحَ لِتجدَ لها حلّاً لكنْ مِن دونِ جدوى، وخلفَها الحبيبُ يرقبُها بعيونٍ تملّكها الخوفُ المشوبُ بحِيرةٍ قاتلةٍ، كانَ الهمُّ الذي ألقى بظلالِهِ عليها وعلى الموجِ هو سؤالٌ لاحَ في أفُقِ صِباها، وبدأَ يكبُر مع مرورِ عقدٍ من الزّمنِ، وهاهو يقتربُ ليقفَ في دربِها سدّاً منيعاً، وكانَ لا بُدّ لهُ من حَلٍّ جذريٍّ يُنسيها ما عانتْهُ في الأيامِ الخوالي. السؤالُ الذي ألحّ عليها هو إلى متى؟ أو بلُغةٍ أخرى"وبعدين".

استمرَّ المشهدُ ساعاتٍ طِوالٍ جَرَتْ بوقوفِ السّاعةِ عن العملِ، شعرتْ بالقشعريرةِ من الرّياحِ الباردةِ التي داعبَتْ سطحَ الماءِ

وشعرَها، ظلّتْ في مكانِها وصمتُها وفكرُها يجوبان في كلِّ حدبٍ وصوبٍ.

طغى الصّمتُ بشدّةٍ إلى أنْ مَضَتْ لحظةٌ من الغيابِ وما شعرَتْ بنفسِها إلّا وهي تسيرُ على الرِّمالِ الذهبيّةِ المُذهّبةِ من شُعاعِ الشّمسِ التي أخذَتْ تشحُبُ شيئاً فشيئاً مع قدومِ الشّتاءِ، وأيُّ شتاءٍ هو آتٍ؟ وماذا يحملُ في طيّاتِهِ؟ وما الذي يخبّأُهُ بين جنباتِهِ وأيامِهِ؟ سارَتْ ولا تعرِفُ وِجهتَها وخلفَها الحبيبُ الذي بدا كأنَّهُ روحٌ غادرَتْها الحياةُ. وصلَتْ إلى نهايةِ الشاطئِ وهناكَ اختفَتْ عندَ المُنتصفِ بينَ الماءِ والرِّمالِ ومعها الرُّوحُ الميّتةُ.

راحَتْ ولم تنجحْ في حلِّ أيّ جزءٍ أو أيّ عُقدةٍ من السّؤالِ الذي قتلَها بدونِ شفقةٍ ويبدو أنَّهُ قادمٌ إليَّ.....

الرُّوحُ الخالدةُ

سطعَ النّورُعندما أعتقتْ روحَها من الأغلالِ والقيودِ، فأطلقَتْ لِنفسِها العنانَ لِتستعدَّ للذّهابِ مع حُلّمِها بعيداً. خلعَتْ ثيابَها واستحمَّتْ بضوءِ الشّمسِ، والقمرُ قابعٌ في قعرِ السّماءِ يراقبُها..

يراقِبُ الفجرَ الذي بَزَغَ من الأرضِ وأودى بنورِهِ الّذي لطالما تغنّى بهِ هو وعُشّاقُهُ...

سَرَى الخوفُ في جوفِهِ و أرادَ أن يعرفَ مصدرَ هذهِ الهالةِ، فقالَ للنّجماتِ: أيٌّ مِنكنّ يعرفُ ما هذا الضّياءُ الذي بعثرَ نوري. فردّتْ عليهِ النّجومُ: نحنُ لا نقارنُ أنفُسَنا بكَ وأنتَ السيّدُ العظيمُ، فكيفَ لنا أنْ نعرفَ ضياءً بعثرَ نورَك؟

حارَ في أمرهِ...اقتربَ منها وسألَها: مَن أنتِ؟

- أنا الوئامُ...أنا العطاءُ...أنا الإخلاصُ.....أنا الوفاءُ!!

بُهِتَ القمرُ وتدارَكَ مُسرِعاً:

- مِن أينَ لكِ كُلَّ هذا الضياءِ؟

- إنّهُ من قلبي!

- وكيفَ لي أنْ أكسِبَ قلباً هو مثلُ الذي بين أضلعِكِ؟

- سامحْ مَن غدرَك واعفُ عمَّنْ ظلمَكَ... تملِكُ قلباً كقلبي.

- كيفَ هذا؟ ألا تعلمينَ ألّا أحداً يطالني؟

- بلى... هُناكَ الكثيرُ مِمّن يطالونَك دونما شعوراً منك.

صُعِقَ القمرُ وقالَ غاضباً.....

- إنَّني أنا ولا أحدَ سِواي في الوجودِ ومهما تعرّضْتُ للظّلمِ والغدرِ يبقى نوري السّاطعُ.

- كلامُكِ صحيحٌ لكنّ الفرقَ بيني وبينكَ أنَّك تنسى مَن ظلَمَكَ أمّا أنا فأسامحُهُ وأعفو عنه. عادَ القمرُ إلى مكانِهِ وكلّهُ حيرةً وضياعٌ، أمّا هي فراحتْ تُكملُ نَشْرَ النّورِ في الأرجاءِ وطَهُرتْ من الأدناسِ التي لازمَتْها وأطفأتِ النورَ حالما انتهتْ.

النورُ الذي مَلَكَتْهُ من روحِها الطّاهرةِ التي جعلَتْها وحيدةً في هذا العالمِ....

وحيدةً بوئامِها.....

بعطائِها.....

بإخلاصِها ووفائِها.....

بقلبِها.....

بعالمِها.....

أنهتْ عملَها واتَّجهَتْ صوبَ المجهولِ، ذهبَتْ نحوَ الأفقِ نحوَ الشّمسِ راحتْ إلى حيثُ نهايةِ العالمِ، راحتْ وأخذتْ معها روحاً خالدةً.

هكذا خُلقنا...

في هذا الزّمنِ الذي يأبى أن يمضيَ سريعاً أُجاهِدُ لكي أجِدَ نفسي وأعرِفَ مُبتغايَ بدونِ فائدةٍ. أبحثُ في ثنايا الأمورِ وطيّاتِ الأيّامِ عن أيِّ شيءٍ يُمكنُ أن يُساعدَني فيما أرّقَني لكنْ عبثاً يكونُ بحثي...

أحاولُ وأحاولُ دونَ جَدوى ولكنْ في النّهايةِ يحدُثُ أنْ تمُرَّ لحظاتٌ في عُمرِ الإنسانِ دونَ أن يعلمَ ماهيّتَهُ حتّى!

هكذا خُلِقْنا.....

لنعلمَ ولكيلا نعلمَ.....

لقاءْ

في لقاءٍ أرادَهُ القدرُ نظرَ إليها ونظرَتْ إليهِ، فأيقنتْ أنّ الحُبَّ من أوّلِ نظرةٍ قد استقرّ بقلبِها، أمّا هو فرسمَ على مُحيّاهُ ابتسامةً خبيثةً. مارسا الحُبَّ كما يحلو لهُما إلى أن انتهى بهما المطافُ.

هي في بحرِ ألمٍ تُصارعُ البؤسَ والشقاءَ، وهوَ يبحثُ عن ضحيّةٍ أخرى يُرضي بها نزعتَهُ السّاديةِ.

حوارٌ مع النّفسِ

البارحةُ وفي ليلةٍ قمراءَ كانتْ غيرَ كُلِّ اللّيالي المُقمِرةِ... كنتُ وحيداً بين جبالٍ ووديانٍ تغزُوها بينَ الحينِ والآخرَ هبّاتُ ريحٍ تَعوي في المنخفضاتِ وتصطَدِمُ برؤوسِ الجبالِ...

في هذا الجوِّ والذي لطالَما حلِمتُ أن أعيشَ فيهِ أردْتُ أنْ أكلّمَ أحداً فلم أجدْ سوى نفسي فسألتُها:

ـ كيفَ حالكِ وأنتِ الآنَ في جوِّ حلْمْنا به سويّاً؟

ـ أشعرُ بالفراغِ!

ـ مِن ماذا؟

ـ بعدَما أخَرَجَتْ منّي بعضَ أشجاني لم تكفّني البقيّةُ المُتبقّيةُ لأعيشَ معها مِثلما عِشْتُ مع الذينَ غادرُوني.

ـ هل تلومينَني على ما فعلَتْ؟

ـ أنا لا ألومُكَ بلْ مقصدي أنّكَ تسرّعتَ بإخراجِها منّي.

ـ على كُلٍّ؛ الفراغُ قد غزانا ويغزونا ولا أجدُ لهُ حلاً يُريحُنا.

ـ أنا أدلّكَ على حلٍّ يُنجينا ممّا نحنُ فيهِ.

ـ وما هوَ؟ كُلّي شوقٌ لمعرفتِهِ!

ـ السّعادةُ!

ـ السّعادةُ؟ وهل هُناكَ ما يحدُّ بيني وبين سعادتي؟

ـ سعادتُنا موجودةٌ ولا شيءَ يحدُّ بيننا وبينها ولكنّنا لا نشعرُبها.

ـ ما السّببُ وكيفَ السّبيلُ للوصولِ إليها؟

ـ طاعتُك لي وبُعدكَ عن اللهِ من أبرزِ الأسبابِ.

ـ أنتِ تقولين هذا الكلامَ وعامّةُ النّاسِ تعرفُ أنّكِ أمّارةٌ بالسّوءِ، وبعضُهم من يشبّهُكِ بالفتاةِ اللّعوبِ.

ـ أنا أعرفُ هذا الكلامَ وكيفَ يُبالغُ النّاسُ في وصفي، ولكنْ لا أحدَ يعرفُني كما أعرفُ ذاتي.

ـ وكيفَ تعرفينَ ذاتَكِ؟

ـ أنا كطفلٍ صغيرٍ تُسيّرهُ الإرادةُ كيفما شاءَتْ.

ـ جوابٌ منطقيٌّ، ولكنْ دعيني أطرحُ عليكِ سؤالاً وأرجو الإجابةَ عليه بمنتهى الصّراحةِ.

ـ اسألْ فحديثُنا هذا هو معقلُ الصّراحةِ في مثلِ هكذا جوٍّ.

ـ عندما أمارسُ فعلاً شنيعاً كيفَ يكونُ حالُكِ، ونفسُ السّؤالِ إذا مارسْتُ عملاً جيّداً لِكلانا؟

ـ أنتَ تعرفُ أنّي نفسٌ وأنتَ وسواكَ مَن تتحكّمون بي، ولن ينفعَكَ قُبُولي أو رفضي لأفعالِكَ وأنتَ بالنهايةِ مسؤولٌ عنّي وعليكَ مسؤوليّةُ توجيهي، أنا كقطعةِ صلصالٍ تُنشِئُها كما تُريدُ.

ـ هل أفهمُ من ردّكِ هذا أنّ مبتدأَ الأمرِ ومنتهاهُ لديَّ؟

ـ أجل. هذا ما قصدتْهُ لكنّي موجودةٌ لأكونَ طرفَكَ الآخرَ، أو مُساعدُكَ الأيمنُ سواءٌ في الخيرِ أو في الشّرِّ.

ـ ما الذي تقصدينَهُ؟

ـ كلامي واضحٌ... أنا وُجدْتُ لإرضائكَ بغضِّ النظرِ عن أفعالِكَ وأعمالِكَ.

ـ لا أعرفُ بمَ أجيبكِ؟! لكنّكِ لم تتركي لي أيَّ مجالٍ للكلامِ.

ـ هذهِ هيَ أنا كالبحرِ... ما إن تغوصَ فيهِ حتّى تضيعَ في موجٍ من التّساؤلاتِ النّفسيّةِ، ودوّاماتٍ من الحيرةِ، وقليلٌ مَن هُم دخلُوا في أعماقِ هذا اليمِّ وخرجُوا منهُ سالمينَ.

ـ حسناً الآنَ دعيني وشأني أريدُ التّفكيرَ مليّاً في حديثِنا.

ـ لكَ ما شئْتَ.

في هذهِ اللحظةِ وبعدما أنهيتُ حِواري ذهبْتُ إلى عالمٍ آخرَ، رنوتُ إلى السّماءِ فوجدْتُ فيها ثقوباً من نورٍ تملؤها بينَ الفينَةِ والأخرى غيماتٌ صغيرةٌ تاهتْ في قعرِ سماءٍ غُيّبَ مُبتداها ومُنتهاها.

تأمّلْتُ هذا المشهدَ قليلاً وأخذَ منّي الشّرودُ بعضاً من خطواتِ السّاعةِ وما شعرْتُ بنفسي إلّا على فراشي، وقد فوّضْتُ أمري إلى سلطانِ النّومِ ودخلْتُ عالمَ الأحلامِ وأسلمْتُ الرُّوحَ إلى بارئِها.....

النُّفوسُ الزّجاجيةُ

في خضمِّ الحياةِ اليوميّةِ ومِن وحي همومِها المُتشعّبةِ المُتكرّرةِ العصيّةِ على الزّوالِ، ومِن تسارُعِ السّاعاتِ والدّقائقِ واللّحظاتِ تناهى إليّ صوتٌ يسألُ: أينَ تعيشُ وتتواجدُ النّفوسُ الزُّجاجيّةُ، وكيفَ لنا أن نلحظَها ونتعرّفَ عليها؟

حينها تزاحمَتِ الأفكارُ في رأسي وتدافعَتْ وأرادَتِ التحرّرَ كُلّها في آنٍ واحدٍ، تناولْتُ يَراعاً وخطّتْ يدي ما خطّتْ. أيّها الصوتُ الغريبُ الذي لم آلفْهُ قبلاً، لقد أثَرَتَ فيَّ ما كنْتُ أُخفيهِ سنيناً طِوالاً وأرغمتْني على البوحِ بما كُنتُ أُخفيهِ.

إنّ النفوسَ الزّجاجيّةَ تعيشُ في كلِّ مكانٍ وزمانٍ، فهيَ تعيشُ في السّوقِ والجامعةِ والبيتِ ومكانِ العملِ والمسجدِ والكنيسةِ، فهيَ ليستْ ممنوعةٌ من الدّخولِ إلى هذهِ الأمكنةِ لأنّ هناكَ قليلاً مَن يعلمون بوجودِها ويشعرونَ بحضورِها.

النفسُ الزجاجيّةُ تعيشُ في أجسادِ الذّكورِ والإناثِ، وفي أجسادِ الأطباءِ والمرضى، وفي أجسادِ القضاةِ واللّصوصِ، وفي أجسادِ الكُرماءِ والبُخلاءِ، وفي أجسادِ الطّاهراتِ والعاهراتِ، وفي أجسادِ العُمّال والصّناعيين، فهيَ تعيشُ في كلِّ مكانٍ يتواجدُ فيهِ البشرُ وهيَ كالعطاءِ والحُبِّ والخيرِ والسّلامِ وجودُها ممتعٌ ولا نشعرُ بهِ إلا حينما نفقدُهُ...

أيُّها الصّوتُ الغريبُ: إن لم تكنْ لكَ نفسٌ زجاجيّةٌ فمِن المُستحيلِ أن تكتشفَ النفسَ الزّجاجيّةَ، ذلكَ أنّ النفوسَ الزّجاجيّةَ تتجاذبُ نحوَ بعضِها البعضِ وتتآلفُ دونَ أن يكونَ لها هدفٌ واحدٌ. إنّما خُلِقتِ النّفسُ الزّجاجيّةُ كي تُكملَ السّلسلةَ الطّويلةَ اللامتناهيةَ من الأنفُسِ البشريّةِ...

أيُّها الصّوتُ الغريبُ: تحدّثَ الكثيرونَ عن النّفسِ البشريّةِ وما تحويهِ من تعقيداتٍ هائلةٍ وبالرّغمِ من هذا الكمِّ الهائلِ من التّأويلِ

عن النّفسِ البشريّةِ، إلا أنّ أحداً ما استطاعَ في بحثِهِ وتأويلهِ جَمْعَ كُلِّ المزايا والخصائصِ للنّفوسِ ومنها الزُجاجيّةُ والنرجسيّةُ والمُطمئنةُ...

أيُّها الصّوتُ الغريبُ: تعالَ إلى حوارٍ يجمعُ الأيّامَ مع تصوّراتِ الأشخاصِ وأفعالِهم حولَ النّفوسِ الزُّجاجيّةِ، فهذهِ الأمورُ الأكثرُ تأثيراً في تلك النّفوسِ علّنا نستطيعُ تشكيلَ صورةٍ تعلو فوقَ كُلِّ ما سبقَ حولَ النّفوسِ الزّجاجيّةِ.

وبعدَها تلاشى الصّوتُ الغريبُ بعدما جمعَ عِدّةَ نفوسٍ زجُاجيّةٍ في صداهُ، ولم يعُدْ يشعرُ أحدٌ بأيِّ نفسٍ زُجاجيّة وأضحى العالمُ غريباً مُوحشاً سريعاً يسيرُ إلى حتفهِ بسرعةٍ كبيرةٍ دُونَ أنْ يعلمَ .....

خريفُ العُمرِ

حانَ الوداعُ والحبيبُ رماني خلفَ الضّياعِ....

ما زِلتُ أذكرُ ذلكَ اليومَ جيّداَ، اليومُ الذي رفضَ عقلي نسيانُهُ وكيفَ ينساهُ وهوَ يومُ ميلادِ موتي، فكانَ جرحٌ في الذّاكرةِ.

بدأ ذلكَ اليومُ برياحٍ خريفيّةٍ، وحينما استيقظْتُ شعرتُ بوَجَل داخلي يسري في عروقي وتسابقتْ ساعاتُ ذاكَ النّهارِ إلى أن جاءَتْ لحظةُ مَقتلي عندما تركَتْني بدونِ وداعٍ أُرثي نفسي وحالَها، أنا الذي عشْتُ معكِ نصفَ قرنٍ أشعلْتِ فيها كافّةَ حرائقِكِ داخلي فأحرقَتْني أيُّما إحراقٍ...

ها أنا ذا أجلسُ على كُرسيّ خشبيّ عتيقٍ أُحاكي أطيافَ خيالِكِ، فأرسمُها في مرآةٍ تحفظُها برهةً وتزولُ فأزولُ مع تلكَ الخيالاتِ، وعندها تطيبُ لي رقصةُ الموتِ؛ ما أجملَ أن تصلَ بجراحِكَ وهزائمِكَ حدّ الرّقصِ...

أيُّ كذبةٍ تلكَ التي عِشْتُ فيها معكِ فكانَ دماري على يدَيكِ ولم تكتفِ بإحراقي وحسبُ، بل رحتِ تنثري ذرّاتَ رمادي المتبقّيةِ في جوفِ ظلامٍ دامسٍ....

بعدَ هذا العُمرِ الذي قضيناهُ سويّاً لا أدري هل سلبَكِ الموتُ منّي؟ أم أنّكِ رجوتِ في أساريرِكِ الدّاخليّةِ أن يأتيَكِ لتقتُليني!! الآنَ لا أعرفُ لِمَ ولِمنْ أعيشُ... تمرُّ عليَّ الأيّامُ دونَ أن ترأفَ بحالي وساعاتِها اللائي غدتْ كسكاكينَ تنهشُ كُلَّ يومٍ بجسدي فتزرَعُ الألمَ في عظامي النّخِرة. ها قد انتهى عُمري بكثيرٍ من الألمِ وقليلٍ من الحُبّ وشيءٌ من اللامنطقِ، فلم تعُدْ تنفعُ لا أيّامٌ ولا شهورٌ ولا سنينٌ. الأجدى نفعاً هو الصّمتُ. الصّمتُ على ما حلَّ بي وسيحُلُّ إلى أن ينتهيَ هذا الخريفُ الذي يمُرُّ بعُمري بسقوطِ ورقتي على أرضٍ جافّةٍ وانتهاءِ معاناتي.

صرخة نجم

ها أنا ذا في عالمٍ يختلفُ عن عالمي، أسيرُ ولا أعرفُ أينَ السّبيلُ للوصولِ إلى أسلوبي الخاصِّ...

قد يقولونَ مُنعزلاً.

قد يقولونَ غامضاً.

قد يقولونَ انطوائيّاً.

ولكنّي لا أهتمُّ أبداً بتشدُّقِهم الذي لا ينفكُّ يُبدي رأيَهم بهذا أو بذاكَ. إنّني أنا ولا أكونُ ولن أكونَ سوى أنا، الشّخصُ الذي وصلَ بفكرهِ إلى أقصى مكانٍ يُمكنُ أن يصلَ إليهِ العقلُ البشريُّ.

مَن يقرأُ كلماتي هذهِ يمتري في صِحّةِ كلامي، ولكنْ مَن يعرفُ عنّي أنَّ الحياةَ مدرستي والتاريخُ معلّمي، لا بُدَّ وأنْ يُوقِنَ أنّه ليسَ محضُ كلامٍ أو حروفٍ مُتجمّعةٍ في سطرٍ أو أكثرَ...

مَن هوَ الّذي مثلي، أنا الّذي عرفْتُ قيمةَ النّفسِ البشريةِ منذُ نعومةِ أظافري...

هذا ليسَ بغرورٍ وليسَ بتكبّرٍ إنّهُ أساسٌ من أسُسِ شخصيّتي الجريئةِ المُحِبّةِ للاستكشافِ والتّطلُّعِ إلى عوالِمِ تفوّقِنا في كلِّ شيءٍ، نحنُ معشرُ البشرِ.

هكذا عِشتُ وهكذا أعيشُ وهكذا سأعيشُ....

هكذا كنتُ وهكذا أكونُ وهكذا سأكونُ صرخةَ نجمٍ...

هذا أنا

بعدَما احتواهُ المقعَدُ القديمُ في الحديقةِ راحَ ينظرُ إلى جَسدهِ، وكيفَ رسمَتِ الأيّامُ تضاريسَها عليه طوالَ خمسينَ عاماً مضتْ، ومن ثمّ راحَ يقلّبُ دفاترَ الذّاكرةِ واحداً تِلوَ واحدٍ، وإذ بمحبوبتهِ القديمةِ تثِبُ أمامَهُ من بينِ الدّفاترِ لتُثيرَ فيهِ ذاكَ الحُزْنَ الحزينَ الذي احتلّ اختِلاجاتهِ يومَ سلبَهُ الموتُ إيّاها، وأبى الحُزْنُ أن يُغادرَ ذلكَ الجسدَ العتيقَ فوأدَهُ الزّمنُ داخلَ صدرِهِ، لكن بُثّتِ الحياةُ فجأةً في ذاكَ الأسى.

فتذكّر كيفَ آلفَ الحُبُّ بينَ قلبَيهما في ذلكَ اليومِ الربيعيّ، وكيفَ انتشيا معاً بذلكَ الودِّ، وأيضاً كيف استهلكَ أيامَهُ بجنونٍ معها؟ وكيفَ كانتِ الأفكارُ تتدافعُ في رأسهِ لتُخرِجَ أرقَّ المعاني وأحلى الكلماتِ حبّاً لها وبها! تذكّرَ كلِماتِها العذبةِ وابتسامتِها الرّقيقةِ وضِحكتِها، وحينما مرّتْ تلكَ الضّحكةُ بمُخيّلتهِ توقّفَ الزّمنُ ورفضَ المُضيَّ، فتمنّى لو أنّ الأرضَ ابتلعَتهُ، أو أنّ السّماءَ

أرسلَتْ صاعقةً عليهِ لتحرقَهُ كما فعلَا ويفعلانِ بهِ الشّوقَ والحنينَ....

أخرجَ من جيبِ سُترتهِ يراعاً وورقةً وأرامَ أن يبوحَ للورقةِ بأحزانِهِ، فتناولَ القلمَ وأرادَ البدءَ، لكنَّ يدَهُ ارتجفَتْ فحاولَ ثانيةً لكنّهُ فشلَ...امتلأَ عزيمةً وإصراراً لملءِ الورقةِ، لكنَّ بياضَها زرعَ فيه الذُعرَ والخوفَ، حارَ في أمرهِ، وهدّأَ نفسَهُ قليلاً، ورمى بِضعَ نظراتٍ حولَهُ فرأى الناسَ أشباحاً من أثرِ الشّمسِ المائلةِ للغروبِ فحدّثْتهُ: ها قد أتاكَ ليلٌ جديدٌ وسيبدأُ نهارٌ بعدَهُ وصبرُك وحُزنَكَ لا يعرفان شيئاً سوى النمو في ذاتِكَ، كلُّ يوم فإلى متى حُزْنُكَ وصَبْرُكَ...فردّ عليّ: لا أعرفُ.

ونهضَ بيأسٍ بعدَما أرسلَ نظرةً إلى الأفُقِ...أحسَسْتُ أنّه تمنّى شيئاً من خِلالِها، لكنّني جَهِلْتُ ما ذلكَ الشيءُ، وسارَ بخُطواتٍ مُتثاقلةٍ يعتريها الحرمانُ وما إن ابتعدَ قليلاً حتى سقطَ مغشيّاً

عليهِ، فاقتربْتُ منهُ ولا أعرفُ ما بهِ فوجدْتُ الموتَ قد خطفَ روحَهُ....

يا إلهي... إنّهُ ميتٌ....

إنّهُ.....

إنّهُ ...إنّي... لقد وجدتُ نفسي فيه...

نِعمةُ النّسيانِ

حينَ اجتاحتْ أعاصيرُ الألمِ الذّاكرةَ، وقَتَلتْ رياحُ الأسى معالِمَ الفرحِ، ولم يحدُثْ شيئاً آخرَ سوى أن خرجَتْ آهاتٌ مُتعبةٌ من كثرةِ الألمِ. قليلةٌ هي كلمةُ ألمٍ على ما يعتريني، وأنا أخطُّ هذهِ السّطورَ ولا أعلمُ إن كانتْ صحيحةً أم لا، فثمالةُ الوجعِ غيّبَتْ عقلي.

يا ربّي لماذا وضعْتَني في هذا الموقفِ!! أن أُحِبَّ وأجْرَحَ من أحبّني دونَ أن أدري، وفي النّهايةِ وبعدَ تتالي النّهاراتِ واللّيالي

أعلمُ بكُلِّ ما حدثَ عن طريقِ الصُّدفةِ!! هل هو الزّمنُ الذي شاءَ أن أقتُلَ بما أخشى أن أُقتَلَ به! لا أعرفُ ما الذي يتوجَّبُ عليَّ فِعلهُ أمامَ أمرٍ قَلَبَ كياني رأساً على عقبٍ، والنّسيانُ الذي يأبى أن يزورَني هذهِ الليلةُ وهوَ الذي اعتادَ زيارتي كُلَّ مساءٍ. هل أُقدّمُ كافّةَ اعتذاراتي وأعذاري على شيءٍ قُمْتُ بهِ دونَ شعورٍ، أم أنّي أستمرُّ في جَرْحِ من وهبَني نفسَهُ.

الآنَ يُخالجُني شعورٌ يمتزجُ ما بينَ الألمِ الذي أُحِسُّ بهِ لأجلِ من جرحْتُ... وندمٌ قاتلٌ على شيءٍ لم أُقُمْ بهِ في عِلمِ الإدراكِ... وحيرةٌ حائرةٌ ممّا حدثَ... ونسيانٌ يرفضُ ورودي. حالي الآن كمن فرّتْ منهُ أسماكُهُ ولآلِئُهُ حتّى أمواجهُ غادرتهُ، ولم يتبقَّ لهُ سوى شعورٌ غامضٌ يجثمُ فوقَ صدرٍ تعِبتْ في جوفِهِ الأنفاسُ....

تُرى ما الّذي سيحدثُ لاحقاً أيضاً، ويعذّبُني مثلما أُعذّبُ الآنَ؟ مَّر عليَّ عُمرٌ بطرفةِ عينٍ ولم يبقَ بحجمِ ما مضى، ولكنّي أُفضّلُ

الموتَ على تكرارِ ما حدثَ معي، لأنّني نجحْتُ إلى حدٍّ ما بإفراغِ مشاعري على ورقةٍ، ولا أعلمُ إن كنتُ قادراً على فِعلِ ذلكَ مرّةً أخرى، لذا فأنا أتمنّى الموتَ فعلاً، ولا أرى نفسي ظالماً بجهالةٍ، ولتمضي الأيّامُ إلى حيثُ تريدُ علّها تجلبُ لي نِعمةَ النّسيانِ.

العودةُ إلى الأمامِ

مُذْ بدأتُ العزفَ على أوتارِ الحياةِ وأنا أتقلّبُ كُلّ يومٍ من حالةٍ إلى أخرى، تارةً أحُبّ وتارةً أنتشي، مرّاتٌ كثيرةٌ أبكي وقليلةٌ هي اللّحظاتُ التي أضحكُ فيها، وبالرّغمِ من كُلِّ هذا أعيشُ دونَ أن ألتفتَ للآخرينَ من حولي، ولكنّي منذُ مدّةٍ قريبةٍ قرَّرْتُ العودةَ إلى الأمامِ.

فردَّ صوتٌ مُبهمٌ: ما معنى العودةُ ونحنُ في كُلِّ يومٍ نكبرُ ونتقدَّمُ فيهِ، نعودُ إلى الوراءِ دونَ أن نشعرَ ثمّ تلاشى وهكذا تمرُّ أعمارُنا نشعرُ بالقليلِ، ويمرُّ الكثيرُ دونَ أنْ نشعرَ. في أيامٍ ماضياتٍ غادرَتْ دونَ رجعةٍ كانتْ أرواحُنا تتلاقى في نِقاطِ الحوارِ، أمّا اليومُ فمازالتْ نقاطُ الحِوارِ تجمعُنا، لكنَّ الذي اختلفَ أنّنا كبُرْنا ولم نعُدْ نحتملُ الرأيَ الذي يُناقِضُ أفكارَنا، ورغمَ أنّ الحُبَّ والوِئامَ قد اعتادا على العيشِ معنا إلّا أنّ شيئاً آخرَ طغى وبقوّةٍ، ففي إحدى المرّاتِ كنتُ قاعداً في مجلسٍ ما وتنقّلَتِ الكلماتُ

والأفكارُ بكلِّ سلاسةٍ ويُسرٍ، حينَها قلْتُ: نحنُ في كلِّ يومٍ نتقدمُ فيهِ إلى الوراءِ ونعودُ إلى الأمامِ شِئنا أم أبينا، وذلكَ بسببِ ناموسِ الحياةِ نفسِهِ، فعندما يكبرُ أحدُنا بعُمرِهِ يقتربُ من أجلِهِ، وهو مغمورٌ في خضمِّ الحياةِ، وأيضاً هناكَ أناسٌ كلّما زادَ سِنّهُم ازدادَ جهلُهم وتخلّفُهم، وأولاءِ حقاً يتقدّمون إلى الوراءِ بشكلٍ مُريعٍ والعودةِ إلى الأمامِ تكونُ بأيِّ شيءٍ!! مثلاً إذا استعصى أمرٌ على أحدِنا عادَ إلى ماضيهِ ليستخلِصَ منهُ حلّاً، وأكادُ أجزمُ أنّ العودةَ إلى الأمامِ هي العودةُ إلى الله عزّ وجلَّ، وذلكَ بعدما مرَّتْ سنواتٌ من التخبُّطِ، فما أجملَ أن تعودَ إلى مالِكِ المُلك وتنعُمَ بكرمهِ، وتسمو بطاعتِهِ، وتتألّقَ بعلمِهِ، وتستنيرَ بنورِهِ، وتتلطَّفَ بلطفه، وتنالَ من فيضِ رحمتهِ، وتفرحَ لرضاهُ وتحزنَ لسخطِهِ.

قد يُخاطبُني أحدُ الأشخاصِ وهو يشرحُ الجُملةَ حرفيّاً ويسترسلُ في الـتأويلِ فيها: سأبدأُ الجملةَ من أوّلِ كلمةٍ فيها. في البدايةِ

سأدقّقُ على كلمةِ "نحنُ" للأسفِ وفي زمنِنا هذا انعدمَ المعنى الحقيقيّ لكلماتِنا المتداولةِ بما يعني، وعلى سبيلِ المثالِ كلمةُ "نحنُ" و هي ترمزُ إلى روحِ الجماعةِ والوحدةِ والتّضامنِ والتّشاركيّةِ والمصيرِ الواحدِ ربّما. أمّا بواقعِنا فأصبحَتْ مُجرّدَ رداءٍ يُغطّي عيوبَنا و تشتّتَنا...فلذلكَ من الغيرِ واقعيّةٍ قولُ كلمةِ "نحنُ"! لكنْ من التفاؤلِ والخيرِ أن نقولَها عسى أن يعودَ ماضينا المُفعمُ بالوحدةِ والتّضامنِ.

أنا متأكّدٌ من ملاحظتِكَ الّتي أرجوها للتناقُضِ الواضحِ بينَ حروفِ هذهِ الجملةِ كلَّ يومٍ، من النقيضِ للصّوابِ الحكمُ على أيّ محدّدٍ بصفةِ المُطلقِ "كل"، فأنا أرفضُ تعبيرَ(كلّ يومٍ)، وأستبدلُ مكانَهُ في عدّةِ أيّامٍ...

نتقدَّمُ إلى الوراءِ جملةً عكسيّةً غريبةَ الأطوارِ متناقضةً، تناقضُها مُلْفِتٌ للاستفهامِ. فعادةً التقدُّمِ هو السيرُ بخطوةٍ ما في موضوعٍ ما

وإلى البُقعةِ الأماميّةِ... أمّا هُنا فَبَطُلَ عملُ الخطوةِ وانعكسَ مزجٌ مؤلمٌ غريبٌ هو التقدّمُ للوراءِ!!! فهي كجُملةٍ على خشبةِ المسرحِ تظهرُ بهذا القوامِ لتُخفيَ خلفَ كواليسِها الحقيقةِ لا التمثيلِ...

فالتقدّمُ للوراءِ هو ليسَ إلّا مجرّدَ مبالغةٍ في التراجُعِ السّلبي...

الواو...واو العطفِ على تركيزٍ آخرَ.

نعودُ إلى الأمامِ! هذا التناقُضُ شبيهُ سابقِهِ ومعاكسٌ له في آنٍ واحدٍ، فهو على خشبةِ المسرحِ توأمٌ لسلفِهِ، أمّا خلفَ السِّتار وفي الكواليسِ فهو نقيضُه الأعظمُ.

والعودةُ إلى الأمامِ كمَن مشى في دربٍ خطوةٌ وتراجعَ عنها، ثمّ عادَ إليها ثمّ عاودَ التراجُعَ عنها وكذلكَ عادَ إليها، كمَن يسيرُ على محيطِ دائرةٍ لا بدايةَ لها ولا نهاية!

"دونَ" وهي النّفي، دونَ أن نشعرَ بذلك وقد نَفَتْ "دون" الشّعورُ الطبيعيُّ وردّةَ الفِعلِ المُفترضةِ لكُلّ ما مرَّ في سالفِ الحالِ، بهذهِ الكلماتِ أنهى حديثَهُ.

إنّ هذه المسألةَ هي إحدى المسائلِ التي تُثيرها سخريةُ القدرِ، كما أنتَ حرٌّ في أعمالِكَ وتصرُّفاتِكَ كما أنتَ أسيرٌ لها في الوقتِ عينهِ، وأمورٌ كثيرةٌ تتمخَّضُ كُلَّ يومٍ... كُلَّ يومٍ... كُلَّ يومٍ....

الرَّحيلُ

كما كُلّ يومٍ يبدأُ... بدأَ هذا اليومُ بشروقِ الشّمسِ المُعتادِ واستيقاظِ النّاسِ بَعْدَهُ كُلٌّ حسبَ وسطهِ وعملهِ، في صباحِ هذا اليومِ وعندما انتهيتُ من رُقادي شعرْتُ بشيءٍ غريبٍ لم أعهدْهُ طوالَ سنيَّ الماضيةِ، وما لبثَ أنْ تحوّلَ ذلكَ الشيءُ الغريبُ إلى خِدرٍ لذيذٍ بدأَ بأسفلِ قدميّ وانتهى بجسدي كُلّهُ، وبعدها فقدْتُ حركةَ أطرافي بشكلٍ كاملٍ وتلاشى تواصُلي مع المحيطِ.

بعدها جاءَني صوتُ أمّي يحضُّني على الاستيقاظِ، لكنّي لم أستطعْ أنْ أستجيبَ لندائِها حاولْتُ قليلاً وكثيراً أنْ أحُرّكَ جسدي أو أيَّ جزءٍ منهُ مقدارَ أنمُلةٍ لكنّي فَشِلْتُ، قُرعَ البابُ بهدوءٍ ومن ثُمّ ظهرَتْ أمّي خلْفهُ، في تلك اللحظةِ اجتاحَني اشتياقٌ شديدٌ إليها فَشِلْتُ في أن أعبّرَ عنهُ، أمّا هيَ فاقتربتْ مِنّي وبدأتْ تهُزّني بهدوءٍ وهي تناديني باسمي، ثُمّ راحَتْ هزّاتُها تزدادُ سُرعةً وشِدّةً إلى أن انتهى بها الأمرُ أن صدحَتْ بأعلى صوتِها باسمي، ونثرَتْ

هدوءَ المنازلِ في الأرجاءِ، وهرعَتْ إلى الهاتفِ تستنجدُ بأبي الذي تركَ عملَهُ، وأتى مُسرعاً بصحبةِ طبيبٍ حاذقٍ بعثرَ أدواتِه وراحَ يمرِّرُها على صدري وانتهى به الأمرُ أن أطّرقَ رأسَهُ بالأرضِ وسحبَ نفسَهُ إلى خارجِ الغرفةِ، وتسارعَتِ الأمورُ. إقبالٌ وإدبارٌ، خُطواتٌ كثيرةٌ ملأتْ أرجاءَ المنزلِ ودموعٌ أكثرُ تنهالُ حولي. كانَ هُناكَ عِدّةُ وجوهٍ.

وجوهٌ شاحبةٌ وأخرى مكفهرّةٌ.....

وجوهٌ صفراءُ وأخرى مُتعبةٌ من شِدّةِ البكاءِ.....

وجوهٌ مُتّعظةٌ وأخرى محترمةً جلالَ الموقفِ وعظمتِهِ.....

ورتابةٌ تجولُ في الأجواءِ في وقارٍ ورهبةٍ، أمورٌ عاديّةٌ ما كانتْ لتظهرَ لولا أمرٌ غيرُ اعتياديّ، إنَّ الأمورَ الغيرَ عاديّةٍ تجلِبُ كمّاً هائلاً من الأمورِ العاديّةِ.

فجأةً انتهتِ الرّتابةُ وغادرتِ الوجوهُ وبقيتُ وحيداً صُحبةَ رجلٍ اتّضحتْ قساوةُ قلبهِ في وجههِ وبانتِ الخشونةُ في ملامِحِهِ، رأيتُ رجالاً كثيرين من قبلُ، لكن هذا مُختلفٌ تماماً عنهم، دنا منّي هذا الرّجلُ وبدأ بتعريتي، غضِبْتُ أشدَّ الغضبِ، لم أعتدْ أن يراني أحدٌ عارياً، استنجدتُ بأطرافي لمنعهِ لكنّ أطرافي لم تكنْ مُلكي في تلكَ اللحظةِ، بعدما أنهى تعريتي راحَ يَصُبُّ الماءَ السّاخنَ على جسدي ويتلو أشياءَ لم أدركْها ويُمرِّرُ يدَهُ فوقَ جسدي المُسجَّى، وخَلُصَ إلى تدليكي بمادّةٍ ما عرفتُها قبلاً وتقييدي، ثُمّ غادرَ. وأعطى الإشارةَ للآخرينَ فدخلَتِ الوجوه وراحَتْ تُلقي القُبلَ على جبهتي، ومنهم مَنْ ألقى مع قُبلهِ قَلبه ودموعَه، كيفَ الّتقَت القبلُ والدّموعُ في آنٍ واحدٍ.... القُبلُ للحُبِّ والدّموعُ للحُزنِ.

وانتظرَ الجميعُ شيئاً، كانوا يتحدّثون عنه ولم أعرفْ ما هو، وفي أثناءِ انتظارِهم كانُوا يتحدّثون عنّي، منهم من كانَ يراني مُميّزاً

عن الآخرينَ، ومنهم من كانَ يعرفُني أكثرَ منّي فيُسكتُه الأسى وكنتُ أشعرُ بفؤادِهِ تخالجُهُ لوعةُ الفِراقِ، وكثيرين من كانوا يطلِقون تعابيرَهم عنّي بإجحافٍ وصِفاتٍ لا تمتُّ إليّ بصلةٍ، وفي النهايةِ يختِمون لا تجوزُ على الميّتِ سوى الرّحمةُ...

لا....لا....لا....أبداً

أنا لستُ هكذا.....

لقد ظلمْتموني بتعابيرِكم.....

هذهِ الصّفاتُ ليستْ لديَّ.....

لكنْ مهلاً ما معنى أنّهُ لا تجوزُ على الميّتِ سوى الرحمةُ.....

ماذا يعني ذلكَ؟.....

هلْ أنا ميّتٌ؟.....

لكنّي مدرِكٌ ما يحصلُ من حولي، أنا فقط فقدْتُ حركةَ أطرافي وتعطّلتْ حواسّي، الموتُ أكبرُ منّي ومن الجميعِ.

وقطعَ عليّ بعضُ الرجالِ ما يدورُ بخُلْدي حينما أتَوا بصندوقٍ خشبيٍّ وحملوني ووضعوني فيهِ، ونقلُوني إلى خارجِ المنزلِ على أكتافِهم وتعالَتِ الأدعيةُ وتلاوةُ القُرآنِ تصدحُ بكلِّ شارعٍ نمرُّ بهِ، إلى أن وصلْنا إلى المقبرةِ، عندها أدركْتُ أنّ عُمريَ انتهى بصباحِ هذا اليومِ، وشعرتُ براحةٍ لم أشعرْ بها وأنا على قيدِ الحياةِ وانتابَتني رغبةٌ جامحةٌ بالبُكاءِ لكنّ الأوانَ كانَ قدْ فاتَ ولم يعُدْ لديّ سوى روحٌ تتحرّقُ لوداعِ الأحبّةِ،هاهوَ مرقدي بانتظاري موحشاً وغريباً، ألقوني بهِ وغادرُوا بعدما تلَوا أدعيةً وقراءاتٍ، وتركوني وحيداً مع لحدي وبرودتِهِ، وغفوتُ بعالمٍ وصحوتُ بآخرَ جديدٍ....

جُرحٌ بملامحِ إنسانٍ

للوهلةِ الأولى شعرْتُ أنّي قادرٌ على نسيانِ ما حصلَ، لم أعِ أنَّ الذي حدثَ معي سيتركُ أثرَهُ على فرحي وحُزني ويخلّدُ ذكراهُ في صمتي.

مُذّ غادرَتني يا خِلّي تغيّرتْ عليّ دنياي، تبعثرَتْ آمالي وتبدَّدَتْ أحلامي، أصبحَ هاجسي لُقياكَ ومُناي مرآكَ.

الآنَ وبين الحياةِ والموتِ أُعُدُّ أيامي وأثورُ عليها فترُدُّ عليّ بساعاتٍ ثِقلُ دقائقِها كثِقلِ الجِبالِ، سئمْتُ من عذابي وضجرْتُ من أحزاني، أعودُ إلى نفسي لأجدَها معتلّةٌ من ألمٍ ألمَّ بها وحزنٌ عصفَ بكيانِها وظلامٌ ضيّعَ معالمَها.

في هذه اللّحظاتِ يمتزِجُ حنيني بحبرِ القلمِ فتخرُجُ كلماتٌ تناديكِ وحروفٌ تُناجيكِ.

بين الفينةِ والأخرى أستذكِرُ أيامَنا الخوالي، عندما كُنّا نرقُصُ مع الورودِ من على سطحِ القمرِ لِنودِعَها في أفئدتِنا، كُنّا نلعبُ مع

الأزهارِ ونتسابقُ مع الأطيارِ حتى ابتعدتْ عنّي فراحتْ معكَ أحلامي وراحَ معكَ نورُ حياتي. أريدُكَ أن تعودَ إليَّ لِتُشرقَ شمسي من جديدٍ وتُنيرَ حياتي. أريدُ أن تعودَ إليَّ لأمحو شوقي واشتياقي إليكَ.

أرجوكَ أن تعودَ لأعودَ إنساناً فلا أريدُ أن أكونَ جُرحاً بملامحِ إنسانٍ.

بينَ كُلِّ شروقٍ وغروبٍ

مرّتْ عليَّ رياحُ العُمرِ فبعثرتْ أوراقَ الذّاكرةِ وحَمَلَتني إلى قِصّةِ ألمٍ خرجَتْ من صُلبِ ألمي...وقِصّةِ حبٍّ وِلدتْ من رحِمِ حُبّي الضّائعِ إلى أن دخلْتُ في مملكةِ الحُبِّ، والتي أخرجَتْني إلى بدايةِ النّهايةِ فكانتْ صَرختي مع النَّجمِ واحدةٌ.

الآنَ وبعدَ أن فرّتْ منّي بعضُ قصصي إلى أوراقِ الدّفاترِ أعيشُ بينَ الصّحوِ والنّومِ، مُحاولاً أن أظهرَ البقيّةَ بمظهرٍ يليقُ بها...لا أريدُ أن أكتبَ بحبرِ القلمِ ولا على ورقِ الدّفترِ... أريدُ أن أكتُبَ بدمي على جدارِ الخلودِ.... أريدُ أن تبقى قِصصي أرواحاً خالدةً وأثاراً باقيةً تروي عنّي مَن أنا وكيفَ أعيشُ.

الآن بينَ كلِّ شروقٍ وغروبٍ... تأتيني نفحةُ خلودٍ من هسيسِ أفكاري أعيشُها كأنّها حلمُ الحُلُمِ...أُجَسّدُ فيهِ آمالي وأيامي الباليّةِ...سأعيشُ مع الأحلامِ والنّفحاتِ وأجمعُها لديَّ إلى أن تكثرَ

وأكوّنَ منها ستارةً أسدلُها على حائطِ الأزلِ... ستارةٌ أريدُ، البقاءُ أن يكونَ عنوانُها الأبرزُ والألقُ عنوانُها الأسمى.

نبذةٌ عنِ الكتابِ

منذُ ميلادِ الفكرِ الإنسانيّ تطرّقَتِ العقولُ إلى جوانبِ الحياةِ كافّةً.

وخططتها على ألواحٍ وأوراقٍ لتغدو فيما بعدُ قصصاً.

تحكي عن الإنسانِ وتفاعلاتِهِ مع محيطِهِ فكتبَتِ الأقلامُ.

أحلى قصصِ الحبّ وأقسى رواياتِ الألمِ وأزكى أمنياتِ الموتِ.

يبعثُ الكاتبُ في نفسِ قارئِ قصصِهِ عدّةَ تساؤلاتٍ.

تُثارُ في كلِّ لحظةٍ ويخلصُ في كلِّ قصةٍ إلى أملٍ جديدٍ وحبٍّ جديدٍ

وعودةٍإلى الأمانِ.

نبذة عن الكاتب

خالد عمر حميدة من مواليدِ حلبَ / سوريا عام ١٩٩٠ أكتبُ الخاطرةَ والقصَّةَ والقصَّةَ القصيرةَ جداً والومضةَ وفنَّ الرّسائلِ على نمطِ صموئيلَ ريتشاردسون ورجاء عبد الله الصّانع.

الكتابةُ بالنّسبةِ لي شغفٌ فهي نافذتي على الحياةِ، بدأتُ مشواري في العامِ ٢٠٠٤، وذلكَ من خلالِ مواضيعِ التّعبيرِ في المدرسةِ نصّي الأوّلُ المستقلُّ كانَ في صيفِ عام ٢٠٠٥، وكانَ تحتَ عنوانِ: غروبُ الحبِّ.

وواظبْتُ على كتابةِ الخاطرةِ والقصّةِ حتى عام ٢٠١٢.

في عام ٢٠١٣ تحوَّلْتُ لكتابةِ الرّسائلِ.

وعام ٢٠١٤ تنقّلْتُ ما بين القصّةِ والقصّةِ القصيرةِ جداً والخاطرةِ.

في عام ٢٠١٥ بدأتُ بالومضةِ.

لي عدّةُ مشاركاتٍ في منتدياتِ رابطةِ الشبيبةِ في حلبَ للأدبِ والثّقافةِ.

نشرْتُ بعضَ النّصوصِ في جريدةِ الجماهيرِ المحليّةِ عام ٢٠١٢.

أحبُ قراءةَ الرّواياتِ وأكثرُ ما أعشقُ "نجيب محفوظ" وثلاثيّتُهُ الشّهيرةُ، كما أنّي أمتلِكُ ميزةً تقوّي من لغتي ألا وهي مُطالعةُ المعاجمِ والمتونِ ولا أجدُ نفسي ميّالاً للشّعرِ.

رجوع للفهرس

مرّتْ عليَّ رياحُ العُمرِ فبعثرتْ أوراقَ

الذّاكرةِ وحَملَتني إلى قِصّةِ ألمٍ خرجَتْ

من صُلبِ ألمي...وقِصّةِ حبٍّ

وُلدتْ من رحِمِ حُبّي الضّائعِ إلى أن

دخلْتُ في مملكةِ الحُبِّ، والتي

أخرجتْني إلى بدايةِ النّهايةِ فكانتْ

صَرختي مع النَّجمِ واحدةٌ.